سلسلة دراسات 21

الفكر الصوفي

ومنهجه عند الإمام البوطي من خلال كتابه «هذا والدي»



الدكتور عبد اللطيف بن رحو

تقديم الأستاذ بوبكر سوغو

MANAR AL ISLAM

مفاد
مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات

كتاب: الفكر الصوفي ومنهجه عند الإمام البوطي من خلال كتابه «هذا والدي»

تأليف: الدكتور عبد اللطيف بن رحو

الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)

ردمــك: ISBN : 978-9920-576-07-9

الطبعة الأولى: 1443هـ / 2022م

التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

الفكر الصوفي
ومنهجه عند الإمام البوطي
من خلال كتابه «هذا والدي»

تأليف

الدكتور عبد اللطيف بن رحو

تقديم الأستاذ بوبكر سوغو

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين تعاظم ملكوته فاقتدر، وتعالى جبروته فقهر، وأعز من شاء ونصر، ورفع أقواما وخفض أقواما، فسبحانه الذي لا يرى بالبصر ويستدل عليه بالآيات والعبر وخلق كل شيء بقدر. والصلاة والسلام الأتمان الأنوران الأكملان الأزهران الأعتران المشرقان المضيئان على ولد عدنان سيدنا محمد ﷺ وعلى صحابته أجمعين ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد..

فلا أملك إلا أن أختار من عبارات الشكر أطيبها ومن مفردات الامتنان أجملها أقدمها للأخ الحبيب والأستاذ الباحث الدكتور عبد اللطيف بن رحو على أن اجتباني لأخط له تقديما لدراسته الموسومة «الفكر الصوفي ومنهجه عند الإمام البوطي من خلال كتابه هذا والدي»، فقبلت ذلك ورحبت به أيما ترحيب.

فالبحث في فكر عالم مفكر جليل من طراز محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله وإنجاز دراسة تتناول جوانبه المعرفية والعلمية أمر محمود يُثنى على فاعله ويُشدّ على عضده، لما يستحقه الرجل من الاعتراف بفضله والإقرار بجهوده الخادمة للدين والأمّة.

وجاءت هذه الدراسة اللطيفة تحقق غاية الاعتراف بالجميل وتسطّر لحظة الوفاء للبوطي وتراثه وتحتفي بذكراه الطيّبة إجلالا له وعرفانا بقدره وإنزالا له حق منزله، وتمتّن الصلة وتوثّقها بالإمام عليه من الله الرحمة وله منه المغفرة.

فقد عمد الأستاذ الباحث إلى سبر أغوار الشخصية الصوفية وتتبع الجوانب التربوية في حياة البوطي وذلك من كتابه الموسوم هذا والدي، جعله قاعدة البحث لاستكناه الأثر التربوي والانعكاس السلوكي في حياته انطلاقا من الارتباط القوي بينه وبين والده والصلة الشديدة بينهما مما أثمر تلك الرؤية المعرفية العرفانية وذلك التصور الإحساني المتكامل في النفس الإنسانية والحياة والكون.

ووقوع اختيار الأستاذ الباحث على العالم المفكر البوطي لم يكن إلا عن تبصر بالمنزلة السافرة التي يتبوؤها الرجل وبمقامه المحمود في عالم الفكر الاسلامي والاشتغال العلمي، وعن معرفة بمدى التأثير الذي يُحدثه فكره وكلامه في سامعه وقارئه من أتباعه ورواد فكره وبين متابعيه من القراء.

وقد أبدع وأجاد وأصاب إذ كشف عن وجه عمق الصلة التي ربطت محمد سعيد (الابن) بملا رمضان (الأب)، وأعرب عن الأثر العظيم الذي أفرزه هذا الارتباط في مقام التربية والتزكية والمعرفة السلوكية وطريقة التعبد لله سبحانه.

وتلكم الصّلة كانت العلامة الظاهرة التي أذكت روح التفقه والسلوك عند الإمام البوطي، وأسهمت في تشكيل العقل الفقهي الوازن لديه وصقل موهبة التفكير المبني على التعمق في التحليل وتجزيء المسائل وتفكيكها لبلوغ التصور المكتمل المعالم.

تناولت الدراسة تفصيلات معالم منهج الإحسان عند البوطي انطلاقا من مفهوم التوحيد عنده وبيان حقائق التصوف ومنازله وما يتعلق به من مقامات وفضائل كالذكر والإخلاص والتوكل ومجاهدة النفس ومحاسبتها.

وفي هذا المقام كان لا بد من بيان التصور المعتدل الذي تبناه الإمام رحمه الله في سلوكه إلى الله على خطى أهل المعرفة الحقة التي لا تُخطئ السبيل ولا تجانب الصواب فيما هو مشروع، فهو لم يكن بالذي يبتغي بسلوكه إلى الله طريقة غير ذات سلطان ولا حجة مرسومة على أوهام وشطحات لا أصل لها لا في قرآن ول في سنة.

وهو الذي سطّر رحمه الله في كتابه هذا والدي مقتديا مهتديا بكلام والده: « فالتصوّف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذا من كتاب الله وسنة رسوله.»

وبنية التصوف عند البوطي رحمه الله تنطلق من قاعدة التمييز بين الشكلين الذين ظهر بهما التصوف في سلوك المتصوفين لا في حقيقة التصوف ذاته، فالبوطي لا يرى التصوف في شكله المرفوض الطرقي، وإنما يرضى بالتصوف بطريقته السنية الخالية من الشوائب الدخيلة العالقة به، وهي السلوك إلى الله جل في علاه تحت أنوار الهدي الرباني الذي جسده النبي صلى الله عليه وسلم بعيدا عن الشطحات والمبتدعات.

جاء في كتابه منتقدا: « أما الطرق التي رسمها كثير من الشيوخ كسبل تربوية لتحقيق الغاية ذاتها، فلم تخل فيما مضى ولا تخلو الآن من البدع».

وللبوطي رحمه الله لمسات خاصة من بين متصوفة عصره يعرف ذلك من كان له حظ وافر من الاطلاع على مؤلفاته والاستماع إلى محاضراته ودروسه التي ضمنها جملة من التصورات والوقفات الفكرية والسلوكية التي يتبناها ويقدمها للمتلقي في قالب سلس سهل الفهم والدراية مستساغ العبارة والمعنى.

وقد أحسن الأستاذ الباحث إذ أجلى جوانب مهمة من الشخصية الفكرية والعلمية للدكتور البوطي رحمه الله وكشف ما من شأنه أن يساعد على الإلمام بالمعين الذي استقى منه توجهه الصوفي السلوكي وأذكى في نفسه السير على طريق من سلفه من الصالحين أهل العرفان واقتفاء أثرهم والنهل مما نهلوا مصحوبا بقاعدة التصحيح وتجاوز ما وقع فيه بعض القوم ظانين أنهم محسنون والحال أنهم انحرفوا عن جادة صواب الهدي القرآني والسنّي.

فجزى الله تعالى خيرا الأستاذ الدكتور عبد اللطيف على هذه الدراسة وكتبها في ميزان حسناته، وشكر الله له صنيعه إذ أحسن بي الظن، ورحم الله العالم الجليل الدكتور البوطي وأعلى مقامه في الصالحين والمقربين، والله تعالى من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

كتبه الأستاذ بوبكر سوغو في مدينة تاوريرت

الفصل الأول: حياة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المبحث الأول: نشأة البوطي وتعليمه

المطلب الأول: نشأته

يعد العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله من أجل علماء العصر ولد في سنة 1929م بقرية جيلكا التابعة لجزيرة بوطان، التي يطلق عليها بالعربية اسم جزيرة ابن عمر، الواقعة داخل حدود تركيا في شمال العراق.

هاجر مع والده المرحوم ملا رمضان إلى دمشق، وله من العمر أربع سنوات. وفي سن السادسة تعلم قراءة القرآن الكريم على يد امرأة فاضلة، وختم تلاوته في خلال ستة أشهر. ثم انتقل إلى مدرسة ابتدائية أهلية خاصة، في زقاق القرماني بدمشق.

المطلب الثاني: تعليمه

تلقى البوطي العلم على والده الملا رمضان رحمه الله، فعلمه مبادئ العقيدة الإسلامية وموجزا من سيرة سيدنا محمد ﷺ، ثم أخذ منه علوم الألة من نحو وصرف.

ثم التحق بمعهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، الذي سمي فيما بعد بمعهد التوجيه الإسلامي، فدرس العلوم الشرعية. إلى أوائل عام 1953، حيث التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر. فحصل على الإجازة بها سنة 1956 م، وكان من الطلبة المتفوقين، ثم عاد إلى دمشق، حيث أعلنت وزارة التربية في نهاية ذلك العام عن المسابقة لوظائف التدريس في المدارس الاعدادية والثانوية. فاشترك، ونجح وبدأ من ذلك العام في سلك التدريس.

عين معيدا في كلية الشريعة بجامعة دمشق سنة 1960 م. وأوفد إلى كلية الشريعة من جامعة الأزهر، للحصول على الدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية، وحصل على هذه الشهادة عام 1965 م. عين مديرا في كلية الشريعة بجامعة دمشق في نفس العام، ثم وكيلا لها، ثم عميدا لها، ثم رئيسا لقسم العقائد والأديان بجامعة دمشق. اشترك ولا يزال في مؤتمرات وندوات عالمية كثيرة، وهو الآن عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، في عمان وعضو المجلس الأعلى لأكاديمية أكسفورد.

المبحث الثاني: شيوخ البوطي ونشاطاته ومؤلفاته

المطلب الأول: شيوخه

تلقى البوطي العلم في بداية حياته العلمية على والده رحمه الله، الذي كان عالما بعلوم الشريعة الإسلامية، وعلوم الآلة وغيرها من العلوم الأخرى. كما درس على يد الشيخ حسن حبنكة، وكان عالما جليلا من علماء دمشق، ورئيس المعهد الإسلامي. وتتلمذ أيضا على يد الشيخ محمود المارديني، وهو أحد تلامذة الملا رمضان رحمه الله، وكان فقيها جليلا.

ومن العلوم التي تلقاها على والده رحمه الله، النحو والبلاغة كما درس عليه كتبا في المنطق، والمقولات العشر، ودرس عليه شرح جمع الجوامع في الأصول، وحفظ على يديه عقود الجمان للسيوطي.

المطلب الثاني: نشاطاته

يحاضر الدكتور البوطي، بشكل شبه يومي في مساجد دمشق وغيرها من المحافظات السورية. ويحضر محاضراته آلاف من الشباب والرجال والنساء.

كتب في عدة من الصحف والمجالات والموضوعات الإسلامية، وقضايا مستجدة، ومنها ردود على كثير من الأسئلة التي يتلقاها، والتي تتعلق بفتاوي أو مشورات تهم الناس، ويشارك في حل مشكلاتهم. يتقن اللغة التركية والكردية ويلم باللغة الإنجليزية. له موقع على الأنترنيت يتلقى فيه الأسئلة، كما يضم الموقع حياته ونشاطاته ومؤلفاته.

المطلب الثالث: مؤلفاته

- كلمات في مناسبات.

- شرح وتحليل الحكم العطائية.

-هذا ما قلته أمام بعض الرؤساء والملوك.

- دراسات قرآنية.

- المذهب الإقتصادي بين الشيوعية والإسلام.

- مشورات اجتماعية من حصاد الأنترنيت.

- يغالطونك إذ يقولون.

- الإسلام والعصر.

أوروبا من التقنية إلى الروحانية.

- كبرى اليقينيات الكونية.

-شخصيات استوقفتني.

-في سبيل الله والحق.

-منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم.

-تحليل النسل.

-حرية الإنسان.

- الله أم الإنسان.

-مع الناس.

-من وراء القرآن الكريم.

- اللامذهبية.

- تجربة التربية الإسلامية.

-سلسلة أبحاث في القمة.

- فقه السيرة النبوية.

- ضوابط المصطلح في الشريعة الإسلامية.

- سيامند ابن الأدغال.

- قضايا فقهية.

- من الفكر والقلب.

- هذه مشكلاتنا.

-على طريق العودة.

-هذه مشكلاتهم.

- على طريق العودة.

-هذه مشكلاتهم.

- حوار حول مشكلات حضارية.

-نقض أوهام المادية الأوهام الجدلية.

- محاضرات في الفقه المقارن.

-الجهاد في الإسلام.

- المرأة.

-الإنسان مسير أو مخير.

- الحوار سبيل التعايش.

-السلفية.

-التغيير مفهومه وطوائفه.

-الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية.

-عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

- مدخل إلى فهم الجذور.

- دفاع عن الإسلام والتاريخ.

-حقائق عن نشأة القومية.

- مموزين.

-هذا والدي.[1]

قتل رحمه الله وهو يلقي شرحا لدرس الحكم العطائية بمسجد جامع الإيمان بيد غادرة يوم الخميس21 مارس 2013م وهو يناهز 84 سنة رحمه الله رحمة واسعة.

(1) من حصاد الأنترنيت حياة الدكتور العلامة محمد سعيد رمضان البوطي www.bouti.com

الفصل الثاني: كتاب "هذا والدي"

المبحث الأول: منهجية كتاب "هذا والدي"

المطلب الأول: ترجمة حياة والد البوطي رحمه الله

كانت ولادة الملا رمضان عام 1888م حسب سجلات قيد النفوس، في قرية صغيرة اسمها (جيلكا) تابعة لجزيرة بوطان، التي يطلق عليها بالعربية اسم جزيرة ابن عمر، وهي داخلة في حدود تركيا.

ولد من أبوين كرديين. اسم أبيه عمر واسم جده مراد، فما إن بلغ الملا رمضان مرحلة الصبا، حتى غدا ينشط مستقلا ببعض شؤون نفسه، فاتجه إلى مساعدة جده في أعمال الفلاحة وخدمة الأراضي، وكان الملا رمضان يرى في ذلك فرصة لأنشطته اللاهية التي يتعلق بها الأطفال في تلك المرحلة.... غير أن والدته التي كانت كثيرة الصلاح والتقوى، كانت تصر على أن يوجه نحو الدراسة وطلب العلم، وقد استطاعت أن تقنع أخيرا زوجها بذلك.[1]

يقول الملا رمضان رحمه الله: «فبقيت مدة من الزمن أتقلب بين رغبة جدي في العمل معه في الحقل وخدمة الأرض، وإصرار أبوي على الدراسة والسير إلى طلب العلم، غير أني كنت أجد متعتي تلك الفترة في أن أفلت من قيود الدرس والكتابة، وأنطلق لأعبث وألهو بين الحقول مع أمثالي من الصغار بحجة تلبية جدي في أن أعينه في أعمال الفلاحة. ولما فوجئت بمن جاء يحمل إلى قلم قصب ودواة حبر وشيئا من الورق، داخلتني الفرحة وتملكني سرور كبير من وصول هذه الأدوات النادرة إلي.[2]

ومن الشيوخ الذي تلقى عليهم الملا رمضان رحمه الله، وكانت أماكنهم متفرقة. أحدهم: الشيخ محمد سعيد سيدا، وكان مشهورا باسم: شيخ سيدا، ثانيهم سيد محمد الفنذكي، وكان الملا رمضان رحمه الله، ينعته بالعلم والتواضع، وثالثهم الملا عبد السلام، وكان يدعوه دائما ب: سيداي ملا عبد السلام، أي أستاذي ملا عبد السلام.[3]

(1) "هذا والدي" محمد سعيد رمضان البوطي ط. 2. دار الفكر 1998 دمشق ص. 3 او 14.
(2) نفسه ص 14.
(3) هذا والدي ص:15.

رحل إلى العديد من البقاع لطلب العلم، وبعد عودته واستقراره في مسقط رأسه، قرية جيلكا، إماما في مسجدها ومدرسا لطلاب العلوم الشرعية في المدرسة التابعة له. أخذ يفكر في تلك الحرب التي اشتعل أوارها، والتي كانت تهدف إلى القضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.... وما لبث أن تطوع مجاهدا في تلك الحرب، وكان عليه أن يتكلف بمعظم نفقاتها... وبعد تدريب سطحي في بعض المعسكرات القريبة، تم الاتجاه بمجموعته إلى جهات من حدود روسيا مما يلي (وان) و (بتلبيس) ومناطق البحر الأسود كان اشتراكه في تلك الحرب تجربة فاشلة قاسية، كما كان يذكر.(1)

هاجر إلى الشام، وذلك لعدة أسباب كانت تموج في تلك الفترة. وصل إلى دمشق واستقر المقام بادئ ذي بدء في غرفة من دار عربية ذات غرفة عدة، في أواخر حي الأكراد. زاول في بداية أمره بتجارة الكتب. وشاءت الأقدار أن يتعرف الملا رمضان على ثلة من العلماء، وسرعان ما عرف في حي الأكراد بالفقيه الشافعي الأول بين علماء الأكراد، فاتجه إليه الطلاب الأكراد الذين من حوله أولا، ثم أقبل إليه كثير من طلاب العلوم الشرعية الذين كانوا يدرسون في المعاهد أو على أيدي المشايخ.... في عامة أحياء دمشق. أسند إليه مهام الإمامة في أحد المساجد الواقعة في المنطقة التي تسمى الحارة الجديدة، فنظم دروسا فيه بعد صلاة الصبح، ودرسا بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة.(2)

عرف الملا رمضان رحمه الله بورعة وزهده وتقواه، فشهد له بذلك من عاصره. ورغم أنه في أواخر حياته عانا من المرض إلا أن وعيه كان متألقا، كما أن انصرافه الوجداني إلى الله زاد، حيث تجلى ذلك في كيانه وفكره وشعوره وتصرفاته وتصوراته إلى الله عز وجل...كانت هذه الحالة تغالب مرضه وتتفوق تفوقا كبيرا على مشاعر آلامه. فلم يكن يراه أحد من أهل البيت أو الزائرين، إلا وهو في حالة تذكر أو فكر وشهود مع الله عز وجل. عاش الملا رمضان رحمه الله مائة وأربعة أعوام، وكانت وفاته رحمه الله ضحى يوم الثلاثاء الواقع في 20 شوال عام 1410هـ الموافق ل: 15 أيار عام 1990. دفن في باب الصغير الذي يرقد فيه بعض رجال العلم من أعيان دمشق. وحين شيعت جنازته كتب على نعشه بيت شعري، وكان بطلب منه رحمه الله:

(1) هذا والدي ص:21.

(2) نفسه ص:47.

أتيتك بالفقر ياذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسنا [1]

المطلب الثاني: مفهوم العبادة عند الملا رمضان رحمه الله

الفرع الأول: صلواته وتهجده

كان الملا رمضان رحمه الله مكثرا من النوافل، سواء منها المؤكدة وغيرها، فلم يكن يدع وقتا يمر وللشارع فيه صلاة مستحبة، إلا وقام فصلاها، مؤثرا دائما النهاية العظمى في عدد الركعات على النهاية الدنيا. ما لم يكن معتلا بعلة تقعده عن أداء هذا الالتزام. وسواء ورد استحبابها في أحاديث صحيحة أو ضعيفة، فقد كان يعزز الضعيف منها ويدعمه بقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: الصلاة خير مشروع و كان حرصه على التهجد لا يقل عن حرصه على الفرائض... و لم يكن يقنعه من ميقاتها قبل الفجر دقائق معدودات بل كان يصر على أن يقوم قبل الفجر بساعتين أو ثلاث ساعات... كان يصلي أولا ركعتين خفيفتين، ثم يطيل الركعة من صلواته التالية ما شاء الله أن يطيل... فإذا دخل السحر جلس على سجادته، وأسلم نفسه لمشاعر الحزن، من تقصيره والخوف مما هو مقبل عليه، وأخذ يناجي الله أنا بالعربية و أخرى بالكردية مع نشيج وبكاء متواصل ثم إن صلاته لم تكن كصلاة أحدنا، تلاوة باللسان، وحركات مألوفة بالجذع والأعضاء، مع قلب منصرف إلى الدنيا وشؤونها بل كان إذا دخل في الصلاة تحول إلى كتلة من التذلل والصغار بين يدي الله، وانساق في ذلك جسمه ومظهره وراء أحاسيسه و مشاعره المنصرفة إلى مناجاة الله عز وجل.[2]

الفرع الثاني: تلاوته وحفظه للقرآن الكريم

اتجه الملا رمضان رحمه الله منذ شبابه إلى حفظ القرآن الكريم، ولكنه لم يتم حفظه إلا بعد استقراره في دمشق، بسنوات.

والمهم أنه كان كثير التلاوة للقرآن الكريم، أما قبل استكمال حفظه له فعلى طريق إكمال حفظه، وأما بعد أن أتم حفظه، فعلى سبيل المحافظة على المحفوظ، واستئناس بكلام الله وتدبر لمعانيه ومراميه.

(1) هذا والدي ص:47.
(2) نفسه ص:70.

كان يختم القرآن في كل أسبوع مرة، وكان يلزم نفسه بقراءة خمسة أجزاء في كل يوم، يبدأ الختمة يوم السبت، ويختمها الخميس ليلا أي ليلة الجمعة. ويجعل من يوم الجمعة يوم راحة للقيام بوظائف أخرى. وقد بقي محافظا على هذا الالتزام وطبق هذا النظام، إلى ما قبل وفاته بأشهر، مع استثناء أيام مرضه. وكانت تستوقفه بعض الآيات فتنال منه منالا، حيث يبقى أياما وأسابيع عدة يتدبرها ويعيش معها ويتحدث عنها وعن تأثره بها للناس في دروسه ومناسبات وعظه.[1]

الفرع الثالث: أذكاره وأوراده

إذا استثنينا الأوقات التي كان مشغولا فيها بالصلاة، والأوقات التي يتناول فيها طعامه، والتي يسلم نفسه فيها إلى الرقاد، فقد كان كل ما بقي من أوقاته وساعات عمره مليئا بالأذكار والأوراد، على ألا ننسى أن الاشتغال بالعلم وتلاوة القرآن، من أجل أنواع الذكر.

كان ذاكر حتى في الطريق الذي يمشي فيه، وكان يمزج، جهد استطاعته، سائر معاملاته الدنيوية، بذكر الله عز وجل.

فإذا طافت به غاشية من الغفلة في ساعة ما، عاودته الصحوة إلى الله سريعا، وأقبل من جديد يشتغل بذكره وورده. وقد كان رحمه الله يظل يتذكر دقائق مرت به يوما ما، كان يعدها من أوقات غفلاته التي مرت به، ولكن الله تداركه فأرسل إليه من ينقده منها. وقد كان رحمه الله ملتزما، إلتزاما مثابرا على ترديد أذكاره وأوراده في كل صباح ومساء. [2]

الفرع الرابع: أدعيته ومناجاته

كانت له رحمه الله – بالإضافة إلى الأدعية المأثورة التي يحفظها ويرددها - أدعية أخرى، يعبر بها عما تجيش به نفسه من مشاعر الخوف من الله والتعظيم له والثناء عليه.

وكانت تمر ساعات وأوقات، يدعو فيطيل فيها الدعاء، ويثني على الله فيطيل الثناء. ومن أخص تلك الأوقات، مساء الجمعة من يوم الخميس، عندما ينتهي من ختمة القرآن

---

(1) هذا والدي ص:72.

(2) نفسه ص:74-75.

الكريم. وكان يختمه على الأغلب بعد منتصف الليل، حيث يكون خاليا في غرفته الصغيرة ليس معه فيها ولا من حوله أحد.

فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، وربما انتابته أحوال غريبة أخذ فيها عن نفسه. وقد كانت له صيغ من أدعية وألوان من المناجاة، سجلها بخط يده في كتيب له، ويبدو أنه كان يعود إليها فيقرؤها في أوقات خاصة. ومن جملة بعض الأدعية التي كان يدعو ويناجي ربه بها: يا رب مالي سواك خالق ولا مالك ولا نافع ولا ضار. فخذ بناصيتي إلى ما يرضيك. يا رب منك الفضل وإليك يا رب رجائي إن لم ترحمني فمن الرحمان؟، يا رب إن لم تسترني فمن الستار؟ يا رب أسألك باسمك العفو الغفور الستار، أن تعفو وتغفر وتستر جميع هفواتي وعثراتي.[1]

الفرع الخامس: ورعه وزهده

كان رحمه الله شديد الورع في علاقاته ومعاملاته، كثير الرقابة على لسانه وعلى ما يجري في مجالسه، فلم يكن يحرك لسانه بغيبة أحد، ولم يكن يأذن لأي من مجالسيه أن يغتاب أحدا، سواء كانوا ضيوفا عنده، أو كان هو ضيفا في دار أحدهم، وأيا كانت مرتبة الذي تورط فاغتاب. ولم يكن يسكت على أي منكر يراه مهما دق أو صغر، ولكنه كان يستعمل في إنكاره أقصى درجات الحكمة واللطف. فإذا رأى من يقابل حكمته ولطفه بالمخاتلة والخداع، أخذ منه الغضب ولم يعد يبالي بأحد أو شيء.

فورعه يتجلى في رقابته على نفسه وشدة اتهامه إياها، وقد يتجلى في اهتمامه الشديد بمراقبة سلوكه وتتبع ما قد تجترحه حواسه وأعضاؤه... وقد يتجلى في اهتمامه بمراقبة نوع المال الذي يدخل جيبة والطعام الذي يدخل فمه والطريق الذي يصل إليه المال أو الطعام منه. كان يحرص على ألا يتسرب إلى جيبه أي مال مشبوه، فضلا عن المال المحرم. والمال المشبوه فيما يعرفه به العلماء هو المال الذي اختلط فيه الحلال مع الحرام. فهو لم يكن يأكل من مرتبي، وكان إذا تلقى دعوة من أحد إلى الطعام، أرسل يحقق في مصدر ماله وكيفية كسبه، فإن علم أن في ماله شائبة حرمة، أو أنه من المال المشبوه كما أوضحنا، افتعل، أيا من الأعذار الممكنة ولم يستجب للدعوة.[2]

(1) هذا والدي ص:77-79.
(2) نفسه ص:92-94.

أما زهده، فيخيل إلى أنه لولا ذيول من الزوجة والأولاد كان يتحمل مسؤولية رعايتهم والنظر في معايشهم، لآثر أن ينفض يده من الدنيا وأن يعيش حياة أزهد الزاهدين من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا جلس إلى مائدة الطعام في داره، ورأى ألوانا متعددة وضعت أمامه، انتابه مزيج من مشاعر العتب على أهل داره، والخوف من سخط الله وعقابه، والألم من عجز الجميع عن الشكر اللائق الله عز وجل.[1]

المطلب الثالث: مسلك الملا رمضان في تربية أولاده

كان الملا رمضان رحمه الله يعتقد أن المنزل هو المصدر الأول للتربية، وأن الأبوين هما أول مسؤول عن تربية الأولاد... والقاسم المشترك بين الذكور والإناث في التربية التي يأخذهم بها، ضرورة تلقين الطفل لفظ الجلالة عند أول محاولة للنطق.

ثم تلقينه جملة الشهادة عندما تنشأ قدرته على النطق بالجملة الكاملة... فإذا درج من المهد وتهيأ عقله لإدراك الأمور وحفظها، وجب إعلامه بأولى الحقائق الكونية وأخطرها. ينبغي إعلامه بأن لهذا الكون إله يدبره ويدير أمره، وأن كل إنسان عبد مملوك لله، كما ينبغي إعلامه باسم أخر الرسول والأنبياء محمد ﷺ، واسم أمه وأبيه ومكان ولادته، ومكان هجرته، وبخلاصة عن سيرته، ثم يلقن القرآن من أوله إلى آخره.[2]

بهذه المبادئ الهامة كان الملا رمضان رحمه الله يأخذ أولاده منذ نعومة أظفارهم. ثم إنه كان يرى أن تربية البنت وتعليمها في المنزل أكثر ضمانة لاستقامتها، إن تيسر وأمكن ذلك، وهذا ما ثم فعلا لابنته زينب وخديجة.

وكان يستحسن إذا أخذت البنت حاجتها من الثقافة والمعارف الإسلامية، أن تتجه إلى إتقان أي من الفنون النسوية. ولم يكن له موقف مخالف لمبدأ تعليم البنات، لكنه كان يشترط لذلك أن يكون طريقهن إلى التعليم نظيفا غير مبوء أو موبوء.

المطلب الرابع: أخذ الأهل والأولاد بهذه التربية

كان الجانب المتميز في التربية الملا رمضان رحمه الله لأهله وأولاده، أنه يذكرهم بالله تعالى في كل مناسبة، ويجعل من كل حال يصيرون إليها أو يتقلبون فيها مناسبة لتذكيرهم

(1) هذا والدي ص:96.

(2) نفسه ص:56.

بسطوة الله أو برحمته أو بكرمه وإنعامه. كان إذا وضع الطعام، أمر جميع أهلاه وأولاده أن يجلسوا جلسة أدب، حتى لكأنهم ماثلون من هذه المائدة أمام الله... وكان يطيب له أن يعدد ألوان الطعام، ويذكر بفضل الله ونعمه ثم يردد قول الله تعالى{ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ}[1] كان الصغار والكبار يتأثرون بهذا التذكير. ومنذ عشرات السنوات، كان رحمه الله يجمع أهله وأولاده على ورد من ذكر الله صباح كل اثنين وخميس بعد صلاة الفجر، فكان يجتمع إليه في مجلسه بعد صلاة الصبح الصغار والكبار جميعا. فيبدأ و يبدؤون معه بذكر (لا إله إلا الله) مائة مرة، ثم ينتقل بهم إلى ذكر لفظ الجلالة (الله) مئة مرة، ثم يقرأ و يقرؤون معه حزب الإمام النووي.[2]

وما يزال البوطي وأهله ملتزمين بوصية الملا رمضان رحمه الله مثابرين على النهج ذاته وفي المواقيت ذاتها حتى وفاته رحمه الله.

المطلب الخامس: الأثر الذي تركته هذه التربية

لقد اصطبغ أهله وأولاده بأثار هذه التربية التي أخذوها، منه رحمه الله عليه شعورا وعاطفة وسلوكا. لقد كانت ولا تزال متميزة بهذه الصبغة. فهذه التربية أثرت أشد التأثر على البوطي، وذلك أنه شعر يوما لأول مرة بعد يقظة من نوم، أنه بلغ ملغ الرجال، فتملكه شعورا غريبا. واهتاجت نفسه موجة عاتية من الوحشة والأسى، إذ تبين له أنه دخل في عهد التكليف... وأن صحيفة قد هيئت باسمه لمراقبة أعماله. وغدا إلى والده رحمه الله وقد أخذه تيار من البكاء، لم يستطع التغلب عليه إلا بالالتجاء إلى والده رحمه الله! قد دخل عليه غرفته وأخبره - ويا للعجب - بكل ما حدث معه، ونشيج البكاء يتغلب عليه. فهدأ من روعه رحمه الله، موضحا أن دخول الإنسان في عهد التكليف يحمل إليه من الخير أضعاف ما قد يعرضه للشر فالأجر على الأعمال الصالحة والمثوبة التي يذخرها الله للعبد، وسبل الوصول إلى محبة الله ورضوانه، إنما يبدأ ذلك كله بدخول الإنسان عهد التكليف.

لم يكن، رحمه الله، يعتد بأثر التربية التي كان يأخذ بها أهله وأولاده، إن تمثلت في مجرد علم يحفظ وأقوال تروى...وإنما كان يعد بها عندما تتمثل في شعور من الحب والخوف

(1) سورة التكاثر الآية:8.
(2) هذا والدي ص:65.

والتعظيم والتبجيل... ولذا فإنه لم يكن يكترث لاهتمام أولاده المتواصل بالعلوم والسعي إلى التحقيق فيها على أنه كان يوصي بالعلم، ويرى أهميته وسيلة لا غاية.[1]

المطلب السادس: الموالد وموقف الملا رمضان رحمه الله منها

كان الملا رمضان رحمه الله يحضر لمجالس المولد النبوي، إن لم يكن فيها منكر أو بدعة عملية أو قولية، وكان يعدها - إن خلت من البدع والمنكرات - من مجالس الذكر التي كان يندب إليها سيدنا رسول الله ﷺ. ولكن إذا شاب هذه المجالس منكر، كاختلاط الرجال بالنساء، أو كإنشاد أبيات تخالف هدي رسول الله ﷺ. وكان يعجبه الإنشاد الذي يتضمن الثناء على الله عز وجل، أو يتضمن مدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بالنهج المشروع، و يؤثر أن يكون المنشدون والسامعون على حالة من التأدب مع الله عز وجل، والأدب مع رسوله صلى الله عليه و سلم، لا أن يهتاجوا هياج من يبحثون عن الطرب بالأنغام والألحان. وربما رأى فيهم من يصفق بيديه، لطرب استخفه، فينكر بشدة وربما أخذه الغضب. إذ المجلس مجلس ذكر وثناء على الله وصلاة على رسوله ﷺ، والتصفيق رعونة أنكرها جمهور الفقهاء فما ينبغي أن يشوب المجلس المبرور والمبارك شيء يخالف الشرع أو لا يتفق مع آدابه.[2] وصفوة القول إنه رحمه الله كان يمسك بجانبين من أهم مكملات الدين، قلما اجتمعا معا لغيره في هذا العصر، هما شدة تمسكه بالتصوف النقي وآدابه، وشدة تجنبه للبدع والمنكرات المألوفة والشائعة.

المبحث الثاني: تأثر البوطي بمنهج وسلوك والده رحمه الله

المطلب الأول: التأثر بعبادة والده

يقول البوطي: «كنت أنفذ نصيحة، بل أمرا أمرني به أبي: أن أتلو سورة يس صباح كل يوم، ومساءه إن استطعت، وأن أهدي ثواب تلاوتها إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه

(1) هذا والدي ص:67-68.

(2) نفسه ص:122-123.

وسلم، وبعض العلماء الربانيين من رجال السلف الصالح، أجل...فلقد كنت ولا أزال، أنفذ هذه الوصية بدقة جهد استطاعتي».[1]

وما يزال البوطي وأهله يجتمعون لذكر الله، بعد صلاة الصبح ملتزمين بوصية الملا رمضان رحمه الله مثابرين على النهج ذاته وفي المواقيت ذاتها. وكانت لهذه العبادة أثر شديد على البوطي، وهذا ما يتبين حين تجالس الرجل، فكل ما يكلمك عن محبة الله إلا وتذرف عيناه بالبكاء لشدة خشيته، وحبه لهذا الدين الحنيف. فقد سبق لي أن راسلته عبر البريد الإلكتروني، فكانت عباراته دالة على أورعه وتقواه العميق، فكان أسلوبه مليحا عذبا، كان له الأثر الشديد في نفسي. يقول البوطي: ومرت أيام، بل سنوات، تشرب فؤادي خلالها وهجا من مشاعر الحب التي كانت يبحث أبي عن أثر ما، لها في قلبي، وساقتني هذه المشاعر إلى وقفة أمل وحب ورجاء بين يدي الله تعالى، ثم إني سجلت هذه المشاعر وكتبها تحت عنوان: «مناجاة قلب كسير».[2]

المطلب الثاني: التأثر بعلم والده رحمه الله

يقول البوطي: الحمد لله الذي نشأني على عين والدي هذا تعليما وتربية وتهذيبا. والحمد لله الذي جعل من وصية والدي التي كتبها لي، لسانا ناطقا يخاطبني بها بعد وفاته أملا من توفيقه وكرمه عز وجل أن ألتمس بها ولا أحيد عنها جهد الاستطاعة ما حييت.

لقد ذكرت فيما سبق، أن البوطي درس في بداية حياته العلمية على والده رحمه الله، فكان لهذا التلقي عن والده الأثر الكبير في شخصية البوطي العلمية. فلقد سار على نفس منهج والده رحمه الله واتخذ نفس السبيل، فهو الآن يحاضر بشكل شبه يومي في المساجد حتى يتسنى للناس الاستفادة من علمه الغزير، وقد حدثني أستاذي ومشرفي على أن البوطي يعد من أجل علماء العصر، ولا شك أن كل واحد منا قد سمع له خاصة وهو يحاضر هنا بالمغرب خلال شهر رمضان المبارك في الدروس الحسنية، أو قرأ له من بعض كتبه، التي توحي بغزارة علمه.

---

(1) هذا والدي ص:61.

(2) نفسه ص:68.

وهو الذي أخذ العهد من والده رحمه الله بأن لا يسعى في طلب العلم إلى وظيفة أو ما شابهها، بل يلتمس رضا الله تعالى.

يقول البوطي لقد كنت ألتمس رضاه، رحمه الله، جهد استطاعتي في كل تقلباتي وأنواع سلوكي، طوال حياتي.[1]

ويقول أيضا: كان أبي معلمي الأوحد... علمني أولا مبادئ العقيدة الإسلامية، ثم علمني موجزا من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ، من خلال رسالة صغيرة اسمها: ذخيرة اللبيب في سيرة الحبيب ﷺ. ثم أخذ يعلمني مبادئ علوم الألة من نحو وصرف. وسلكني في طريق حفظ ألفية ابن مالك في النحو. فكان يفسر لي كل يوم خمسة أو ستة أبيات منها، وكان علي أن أتقنها بعد ذلك حفظا في بياض ذلك النهار. فأذكر أنني حفظت الألفية كلها خلال أقل من عام ولم أكن قد ناهزت البلوغ بعد. [2]

(1) هذا والدي ص:195.
(2) نفسه ص:57.

الفصل الثالث: فكر البوطي من خلال كتابه "هذا والدي"

المبحث الأول: مفهوم التوحيد عند البوطي

المطلب الأول: التوحيد لغة

الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له ألبتة، ثم يطلق على كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به، فيقال، عشرة واحدة ومائة واحدة وألف واحد.[1]

التوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له. والله الأحد: ذو الوحدانية والتوحد. يقول ابن سيده والله الأوحد والمتوحد وذو الوحدانية، ومن صفاته الواحد الأحد، قال أبو منصور وغيره: الفرق بينهما أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول ما جاءني أحد، والواحد اسم بني لمفتتح العدد، تقول ما جاءني واحد من الناس، ولا تقول جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى، وقيل الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عز وجل، والواحد لفظ مشترك يستعمل على ستة أوجه:

1 - ما كان واحدا في الجنس أو في النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد في الجنس، وزيد وعمرو واحد في النوع.

2 - ما كان واحدا بالاتصال، إما من حيث الخلقة كقولك شخص واحد، إما من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة.

3 - ما كان واحدا لعدم نظيره، إما في الخلقة كقولك الشمس واحدة، وإما في دعوى الفضيلة، كقولك فلان واحد دهره وكقولك نسيج وحده.

4 - ما كان واحدا لامتناع التجزئة فيه: إما لصغره كالهاء وإما لصلابته كالماس.

---

(1) دلائل التوحيد للشيخ جمال الدين القاسمي خرجه عبد الرحمن العك دار النفائس بيروت الطبعة:1 سنة:1991 ص:47.

5 - للمبدأ، إما لمبدأ العدد: كقولك واحد اثنين، وإما لمبدأ الخط كقولك: النقطة الواحد، والواحد في كلها عارضة.

6 - وإذا وصف الله تعالى بالواحد: فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزؤ، ولا التكثر لصعوبة هذه الوحدة: قال عز وجل: {وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}(1) والواحد المفرد. ويوصف به غير الله.

وقال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه اخر.» قال الأزهري: « وأما اسم الله عز وجل أحد فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل وأحد أي فرد لأن أحدا صفة من صفات الله عز وجل التي استخلصها لنفسه، ولا يشركه فيها شيء، وليس كقولك الله واحد وهذا شيء واحد ولا يقال شي أحد، وإن كان بعض اللغويين قال: إلى الأصل في الأحد وحد، قال اللحياني: قال الكسائي: ما أنت من الأحد أي من الناس وأنشد قائلا:

وليست يطلبني في أمر غانية إلا لعمرو وما عمرو من الأحد.

قال الأزهري: وليس الله تعالى الواحد، لأن الأنساب إنما تكون للمخلوقين، والله تعالى صفته أنه لم يلد ولدا ينسب إليه، ولم يولد فينتسب إلى ولد، ولم يكن له مثل ولا يكون فيشبه به تعالى عن افتراء المفترين، وتقدس عن إلحاد المشركين، وسبحانه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

قال الأزهري: والواحد من صفات الله تعالى، معناه أنه لا ثاني لها ويجوز أن ينعث الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا ينعت به غير الله تعالى لخلوص هذا الاسم الشريف له، جل ثناؤه. وتقول: أحدت الله تعالى وحدته، وهو الواحد الأحد ».(2)

(1) سورة الزمر الآية:42.

(2) لسان العرب لابن منظور. تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي الطبعة:3 سنة: 1999م دار أحياء الستار النت العربي بيروت لبنان ج/ 15 ص: 233.

وإذا قيل الله واحد أو أحد معنى ذلك انفراده بما له من ذات وصفات وعدم مشاركة غيره له فيها، فهو واحد في إلهيته فلا إله غيره وواحد في ربو بيته فلا رب سواه، وواحد في كل ما يثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له سبحانه.(1)

وكلمة وحد تتكون من ثلاث حروف: الواو، الحاء، الدال، فأصل، واحد يدل على الانفراد من ذلك الوحدة وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله.(2)

المطلب الثاني: التوحيد اصطلاحا

هو اعتقاد الوحدانية الله ذاتا وصفة وفعلا. ويعلق بمعنى الفن المدون، ويعرف بأنه علم يقتدر به على اثبات العقائد الدينية، مكتسب من أدلته اليقينية، يعني من الأدلة النقلية الصحيحة المفيدة للعلم، ومن البراهين العقلية، واستعداده من القرآن الكريم والحديث الصحيح والإجماع والنظر. ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية ككون العلم صفة من صفات الله. وغايته أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متقنا محكما، لا تزلزله شبهة من شبه المبطلين. ومنفعته سعادة الدنيا والآخرة.(3)

وهو محصول قولنا لا إله إلا الله. وهو أن تؤمن بأنه إله واحد أحد، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا أشرك في حكمه أحدا، ليس له في ربوبيته شريك ولا نظير، وليس في ملكه ضد ولاند ولا منازع ولا ظهير. و البرهان الواضح على الوحدانية: معقول أربع آيات: الأولى: قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلَّا اَللَّهُ لَفَسَدَتَاۖ فَسُبْحَٰنَ اَللَّهِ رَبِّ اِلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَۖ }(4) ومنه أخذ المتكلمون دليل التمانع إلا أن القرآن الكريم أفصح و أوضح و الثانية قوله تعالى { قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥ ءَالِهَة كَمَا تَقُولُونَ إذا لَّابْتَغَواْ اِلَيٰ ذِے اِلْعَرْشِ سَبِيلاًۖ }(5) فإن عدم النزاع دليل على عدم المنازع.

---

(1) دلائل التوحيد لمجد جمال الدين القاسمي ص: 49.

(2) معجم مقياس اللغة لأبي الحسين أحمد فارس بن زكرياء تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الأولى 1990. الا ان الانسان البلدان القاهرة مصر. ج/6. ص: 90.

(3) العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية لأحمد بن حجر آل بوطامي الطبعة:1 سنة:1970 بيروت ج/1 ص:12-13.

(4) سورة الأنبياء الآية:22.

(5) سورة الإسراء الآية:42.

و الثالثة: قوله تعالى { مَا اَتَّخَذَ اَللَّهُ مِنْ وَّلَد وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنِ اِلَٰهٍۖ اِذا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَيٰ بَعْضٍۖ سُبْحَٰنَ اَللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَۖ } [1] فكون الوجود كله مرتبطا بعضه ببعض دليل على أن مالكه واحد.

و الرابعة: معقول قوله تعالى { وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَة لَّا يَخْلُقُونَ شَئْاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّا وَلَا نَفْعا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتا وَلَا حَيَوٰة وَلَا نُشُوراًۖ } [2] فإن من الصفات الإله كونه خالقا، و لا خالق إلا الله، فلا إله إلا الله، و غيره مخلوق، و المخلوق لا يكون شريكا لخالقه. قال عز وجل { أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۖ أَفَلَا تَذَّكَّرُونَۖ }.[3]

والتوحيد في الإشارة الصوفية نوعان: عام وخاص: فالعام: عدم إشراك الجلي، وهو مقام الإيمان الحاصل لجميع المؤمنين. والخاص: عدم الإشراك الخفي، وهو مقام الإحسان، وهو خاص بالأولياء العارفين. [4]

و التوحيد أول دعوة الرسل، و أول منازل الطريق، و أول مقام يقول فيه السالك إلى الله عز و جل. قال تعالى: { لَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَيٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اِعْبُدُواْ اُ۬للَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍۖ }[5] و قال رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ» [6] و لهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا شك، كما هي لأرباب الكلام المذموم. بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتحديد ذلك عقب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك. وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء: كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص نص الإسلام، ولم يتكلم

(1) سورة المؤمنين الآية:92.

(2) سورة الفرقان الآية:3.

(3) سورة النحل الآية:17.

(4) القوانين الفقهية لأحمد بن جزي الغرناطي تحقيق عبد الكريم الفصيلي ط دار الرشاد الحديثة 1999 الدار البيضاء ص: 30-31.

(5) سورة الأعراف الآية:58.

(6) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة رقم الحديث: 25 ج/ 1 ص: 14.

بهما، هل يصير مسلما أم لا؟ والصحيح أنه يصير مسلما بكل ما هو من خصائص الإسلام. فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام. وآخر ما يخرج به من الدنيا.[1]

والتوحيد دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإداري الطلبي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ويوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله.[2]

قال أحمد المقري في إضاءة الدجنة:

الحمد لله الذي توجيه أجل ما اعتنى به عبيده[3]

المطلب الثالث: أقسام التوحيد

الفرع الأول: توحيد الربوبية

يؤمن المسلم بربوبيته تعالى لكل شي، وأن لا شريك له في ربوبيته لجميع العالمين. ولفظ الدرب يطلق على عدة معاني، منها السيد والملك والمربي، والمصلح، والمعبود بحق سبحانه وتعالى، إذ الق الرب يطلق عليه إطلاقا حقيقيا ومجازيا إضافيا لا غير. ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق است الربوبين التي تعني الخلق، والرزق، والملك والسيادة، والتربية، والإصلاح والتدبير ولكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين، اختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيده فيها، وامتنع عنه الشريك فيها بحيث ولا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصلح. ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه تقي الشرك عنه تعالى في صفات الربوبية

(1) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي خرجها مجموعة من العلماء، ط 7، المكتب الإسلامي 1983 بيروت ج 1/ ص: 74 - 75.

(2) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمان حسن آل الشيخ الطبعة: 1 مكتب السعودي سنة:1984 المغرب، ص: 21.

(3) إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة لأحمد المقري المغربي طبعة دار الفكر دمشق ص: 3.

الحقة والتي هي الخلق والرزق والتدبير الذي من لوازمه الأمان والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع والإعجاز والإدلال ولا يخل بتوحيد الربوبية، أو يضره.[1]

ويقول ابن الأثير: الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والمقيم والمنعم. ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف ويقال (رب كذا) ومن هنا يتبين أن للفظ الرب عدة معان، وهذه المعاني كلها مما يصح أن تراد بلفظ الرب إذا أطلق على الله تعالى، فهو المربي الأشياء الذي ينميها وينقلها في الأطوار المختلفة حتى يبلغ بها كمالها، وهو المالك لها والسيد عليها والمدبر لمصالحها، والقائم بحفظها وكلاءتها.[2]

ومن الأدلة النقلية الدالة على الإيمان بربوبيته عزو جل:

1 -إخباره تعالى بربوبيته بنفسه، إذ قال في الثناء على نفسه: { اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ اِلْعَٰلَمِينَ }[3] وقال أيضا:{ قُلْ مَن رَّبُّ اُلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ قُلِ اِللَّهُۖ قُلَ اَفَاتَّخَذتُّم مِّن دُونِهِۦ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعا وَلَا ضَرّاًۖ}[4] و قال أيضا عز و جل: {رَبُّ اُلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَۖ }[5]

2 -إخبار الأنبياء و المرسلين بربوبيته تعالى قال عز وجل: {قَالَ نُوح رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِے وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥ إِلَّا خَسَاراً }[6] و قال أيضا: {وَزَكَرِيَّآءَ إِذْ نَادٰي رَبَّهُۥ رَبِّ لاَ تَذَرْنِے فَرْدا وَأَنتَ خَيْرُ اُلْوَٰرِثِينَۖ }.[7] و قال ﷺ: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطع، أو بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"[8] و قال ﷺ: « اللهم رب جبريل وميكانيك و إسرافيل

---

(1) عقيدة المؤمن لأبي بكر جابر الجزائري الطبعة:1 سنة: 1981 دار الجيل، ص: 74.

(2) دلائل التوحيد محمد جمال الدين القاسمي، ص: 70.

(3) سورة الفاتحة الآية:1.

(4) سورة الرعد الآية:17.

(5) سورة الدخان الآية:6.

(6) سورة نوح الآية:21.

(7) سورة الأنبياء الآية:88.

(8) رواه البخاري في صحيحه دار ابن كثير للطباعة والنشر بيروت الطبعة:1 سنة:2002 كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار رقم الحديث: 6306 ج/4. ص:1573.

فاطر السماوات و الأرض، عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه مخيلون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.»(1)

وبالإضافة إلى الأدلة النقلية نجد أيضا الأدلة العقلية ومنها:

1 -تفرده تعالى بالخلق لكل شيء، إذ من المسلم به لدى كل البشر أن الخلق والإبداع لم يدعهما أو يقوى عليهما أحد سوى الله عز وجل ومهما كان الشيء المخلوق صغيرا وضئيلا.

قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}(2)

2 - تفرده تعالى بالرزق، إذ ما من حيوان سارح في الغبراء أو سابح في الماء، أو مستكن في الأحشاء، إلا والله تعالى خالق رزقه وهادية إلى معرفة الحصول عليه وكيفية تناوله والانتفاع به. قال تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّة فِي اِ۬لَارْضِ إِلَّا عَلَي اَ۬للَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۖ كُلّ فِي كِتَٰب مُّبِينٖ }.(3)

3 - شهادة الفطرة البشرية السليمة بربوبيته تعالى، وإقرارها الصارخ بذلك، فإن كل إنسان لم تست فطرته يشعر في قرار نفسه بأنه ضعيف وعاجز أمام ذي سلطان غني قوي، وأنه خاضع لتصرفاته، وتدبيره له بحيث يصرخ في غير تردد: أنه الله ربه ورب كل شيء.(4)

الفرع الثاني: توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية جزء هام من عقيدة المؤمن، إذ هو تمرة توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وجنات الطيب، وبدونه يفقد توحيد الربوبية، والأسماء والصفات معناه، وتنعدم فائدته. فتوحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة المستلزمة لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يعبد به من أعمال القلوب والجوارح، وألا يشرك معه غيره في شي منها.(5)

(1) رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم الحديث: 770.ج/1 ص:543

(2) سورة الصافات الآية: 96.

(3) سورة هود الآية:6.

(4) منهاج مسلم لأبي بكر جابر الجزائري ط 19921 دار الفكر بيروت ص 13-14-15.

(5) عقيدة المؤمن ص: 80.

ومعناه أيضا إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده. فإن الألوهية نسبة إلى الإله بمعنى المعبود يقال: أله، يأله وألوهة، بمعنى عبد عبادة، قال ابن العباس رضي الله عنهما:» الله در الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين «. والإله اسم المعبود مطلقا بحق أو بغير حق، فهو يطلق على الست عز وجل كما يطلق على غيره من المعبودات الباطلة وجمعه آلهة. فأما الله فمختص بالمعبود بحق لا يطلق على غيره، فهو يشبه أن يكون علما عليه، وإن كان الصحيح أنه مشتق كما قدمنا. والتوحيد الإلهية شر المقصود الأعظم من بعثة الرسل عليهم السلام، وذلك لأنه هو الذي وقع فيه النزاع بين الرسل وبين أمي كما حكى القرآن الكريم. فالمشركون من كل أمة كانوا يتخذون من دون الله أندادا يشركهم بالله في العيادة، ويعتقدون أن لهم حقا فيها مع الله عز وجل وكانوا يبدون على جهة التقرب بهم إلى الله في العيادة واتخذوهم وسائط وشفعاء عنده زعما منهم أنه لا تقضي لهم حاجة ولا يسمع لهم دعاء ولا تفتح لي أبواب السماء إلا بشفاعة هؤلاء الوسطاء.[1]

والمسلم يؤمن بألوهية الله تعالى لجميع الأولين والآخرين، وأنه لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه وذلك لأدلة نقلية وعقلية.

1 -الأدلة النقلية: شهادته تعالى، وشهادة ملائكته، و أولي العلم على ألوهيته سبحانه و تعالى، فقد جاء في سورة آل عمران قوله تعالى { شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاۢ بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }[2] اخبار رسله عليهم السلام بألوهيته تعالى ودعوة أممهم إلى الاعتراف بها، و إلى عبادته وحده دون سواه، قال عز وجل على لسان نوح عليه السلام { فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[3] و قال تعالى على لسان يونس عليه السلام { فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ }[4].

2 - الأدلة العقلية: إن ربوبيته تعالى دون جدل مستلزمة لألوهيته وموجهة لها، فالرب الذي يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، وينفع ويضر هو المستحق لعبادة الخالق، والمستوجب

(1) دلائل التوحيد ص. -77 78.

(2) سورة آل عمران الآية:18.

(3) سورة الأعراف الآية:58.

(4) سورة الأنبياء الآية:86.

لتأليهم له بالطاعة والمحبة، والتعظيم والتقديس، وبالرغبة إليه والرهبة منه. فإذا كان كل شيء من المخلوقات مربوبا لله بمعنى أنه من جمل من خلقهم ورزقهم، ودير شؤونهم، وتصرف في أحوالهم وأمورهم، فكيف يعقل تأليه غيره من مخلوقاته المفتقرة إليه؟ وإذا بطل أن يكون في المخلوقات إله تعين أن يكون خالقا هو الإله الحق والمعبود بصدق. فاتصافه عز وجل دون غيره بصفات الكمال المطلق، ككونه تعالى قوياً قديراً، علياً كبيراً، سميعاً بصيراً، رؤوفاً رحيماً، لطيفا خبيراً، موجب له تأليه قلوب عباده له بمحبته وعظمته، وتأليه جوارحهم له بالطاعة والانقياد.[1]

إذن فتوحيد الألوهية يقوم كما ذكرنا آنفا على صرف جميع العبادات الله والإخلاص له فيها بغير شائبة توجه بشيء منها لغيره أصلا، فلا بد إذن من معرفة أنواع العبادات التي تعبدنا الله عز وجل بها في العقائد والأقوال والأعمال التي يحبها ويرضاها، والتي أمرنا أن نتقرب إليه بها، فإن بعض هذه الأمور قد التبس على الكثير من الناس، فلم يفقهوا معنى التعبد فيها، فتوجهوا بها إلى غير الله عز وجل دون أن يشعروا بخطر ذلك على دينهم، وإنخلاعهم به من رقبة الإسلام.

الفرع الثالث: توحيد الله تعالى في صفاته

أليس من نفي صفة من صفات الله تعالى خوفا من التشبيه كان قد شبهها أولا بصفات المحدثين، ثم خاف من التشبيه ففر منه إلى النفي والتعطيل، فنفي صفات الله تعالى التي أثبتها لنفسه وعطلها، فكان بذلك قد جمع بين كبيرتين، التشبيه والتعطيل؟ فلا يكون من المعقول إذا، والحالة هذه، أن يوصف الباري عز وجل بما وصف به نفسه ووصف به رسوله مع اعتقاد أن صفاته تعالى لا تشبه صفات المحدثين، كما أن ذاته عز وجل لا تشبه ذوات المخلوقين؟ [2]

إن صفات الله تعالى منها ما هو جار على الذات بحيث يحمل عليها كالحي والقادر والعلم والمريد والمتكلم والسميع والبصير وغير ذلك، وبعضهم يسميها أحكاما، ومنها ما هو ليس

(1) منهاج مسلم ص 18-19.

(2) نفسه ص:22.

بجار ولا محمول على الذات بل هو قائم به قيام الاختصاص كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام.

فأما الحياة: إن الله هو الأول القديم الذي لم يزل في أزل الأزل قبل وجود الأزمان ولم يكن معه شيء غيره، قال تعالى: { ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ }[1] وكونه حي نتيجة الثبوت صفة الحياة له.

ودليلها من العقل ما ثبت من اتصافه جل جلاله بصفة العلم والقدرة والإرادة وغيرها، إذ لا يتصور قيامها إلا بمن ثبتت فيه صفة الحياة.[2]

وأما القدرة: وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه وتكييفه.[3]

فإنه تعالى قدير على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يصعب عليه شيء وبيده ملكوت كل شي. أفلا ترى أثر قدرته في اختراع الموجودات وإمساك الأرض والسماوات ونفوذ أمره في التصرف في المخلوقات. ففي كل يوم يميت ويحي ويخلق ويفني، ويفقر ويغني، ويعز ويدل، ويهدي ويضل ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويسعد ويشقى، ويعافي ويبتلي.[4]

قال تعالى: { إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُۖ }[5]

أما الإرادة: فهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها، من وجود وعدم وتكيف بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي.[6]

(1) سورة البقرة الآية:253.
(2) كبرى اليقينيات الكونية للبوطي الطبعة:8 دار الفكر سنة: 1998م ببيروت ص:130.
(3) نفسه ص:122.
(4) القوانين الفقهية الابن الجزي الغرناطي ص: 28.
(5) سورة يس الآية:81.
(6) كبرى اليقينيات الكونية ص:120.

فهو سبحانه المريد لجميع الكائنات، المدبر للحادثات، المقدر للمقدورات والفعال لما يريد فكل نفع وضر، وحلو ومر وكفر وإيمان وطاعة وعصيان، وزيادة ونقصان وربح وخسران.[1]

قال تعالى: {لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ}.[2]

أما العلم: وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي في الواقع أو على ما ستكون عليه في المستقبل. ولدى تأملك في هذا التعريف تعلم أن هذه الصفة ليس من شأنها تخصيص الممكنات أو التأثير فيها بوجه من الوجوه، ولكن شأنها مجرد الكشف والاطلاع سواء تعلق بواقع ظهر إلى الوجود أم بمغيب لا يزال في جوف العدم.[3]

فالله تعالى اسمه عالم بجميع المعلومات، محيط بما تحت الأرض السفلي إلى ما فوق السماوات، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شي عددا، وعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهو حاضر بعلمه في كل مكان ورقيب على كل إنسان.[4]

قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.[5]

أما السمع والبصر: هما صفتان أزليتان قائمتان بذاته تعالى تتعلق بالمسموعات، وبالمبصرات، فاتصافه تعالى بهاتين الصفتين إنما استفيد من دليل النقل الثابت بالقطع في كل من الكتاب والسنة بحيث لا يسع العاقل أن ينكر أم يؤول.[6]

فإنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن سمعة مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرني وإن دق حتى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.[7]

(1) القوانين الفقهية ص:28.
(2) سورة الأنبياء الآية:23.
(3) كبرى اليقينيات الكونية ص:120.
(4) نفسه ص:28.
(5) سورة التوبة الآية:116.
(6) كبرى اليقينيات الكونية ص:122-123.
(7) القوانين الفقهية ص:28.

قال تعالى: {﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾}[1]

ثم إن العلماء اختلفوا في مدى شمول كل من هاتين الصفتين، فقال البعض منهم كالباجوزي والسنوسي إنهما شاملتان لكل الموجودات مع اختلاف المعنى في كل منهما، أي فسمعه تعالى يتعلق بما هو قابل للسمع بالنسبة إلينا وبما هو غير قابل له من سائر الموجودات، وبصره تعالى كذلك. وقال البعض كسعد الدين التفتزاني رحمه الله: إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات وصفة البصر تتعلق بالمبصرات. و الذي ينبغي أن نقف عنده في هذا الصدد هو الإيمان بثبوت هاتين الصفتين له سبحانه و تعالى طبقا لما وصف به نفسه، ثم إن الإيمان بأن لكل صفة من هاتين الصفتين وظيفة تمتاز عن الأخرى، وإلا لما كان في إسناد كل منهما إليه تعالى على حدة أي معنى غير التكرار، و هو محال في هذا المقام.[2]

وأما الكلام: وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بها أمر وناه ومخبر، عبّر عنها نظم ما أوحاه إلى رسله كالقرآن والتوراة والإنجيل. وأما التحقيق في معناها، فاعلم أن الكلام في اللغة العربية يطلق على معنيين: أحدهما الألفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس، فتقول: هذا كلام فصيح، وكلام واضح.

ثانيهما: المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أن يعبر عنه بألفاظ.[3]

فأما دليل ثبوت هذه الصفة لله تعالى فالنصوص القطعية الثابتة في الكتاب، منها قوله تعالى: { وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً } [4] فإنه تعالى متكلم آمر ناه بصفة أزلية، ليس بحرف ولا صوت، و لا يقبل العدم، ولا ما في معناها من: السكوت ولا التبعيض ولا التقديم ولا التأخير، الذي لا يشبه كلام المخلوقين، كما لا تشبه ذاته ذوات المخلوقين، لا تنفذ كلماته كما لا تحصى معلوماته، ولا تنحصر مقدوراته.[5]

(1) سورة آل عمران الآية:5.
(2) كبرى اليقينيات الكونية ص:123.
(3) نفسه ص:124.
(4) سورة النساء الآية:163.
(5) القوانين الفقهية ص:29.

قال تعالى: { قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا } (1) وقد اختلفت الأشاعرة في إثبات الحال فمن نفاها منهم وهم الأكثر، فمعنى القادر عندهم مثلا والذات من حيث قيام القدرة به فهو اسم للذات باعتبار المعنى القائم بها، فليس عند هؤلاء إلا الذات والقدرة القائمة به، فتارة يعبر عن الذات بما لا يشعر بالصفة كما يعبر بأسماء الذات كالله، وتارة يعبر عن تلك المعاني بما يشعر بها فقط لا بالذات كما يقال القدر مثلا معبرا عن الصفة الخاصة، وتارة يعبر بما يشعر بهما معا وأن المدلول من ذلك هو الذات باعتبار قيام المعاني، وهذا المتبادر من التعبير. وقولنا القادر والعالم مثلا هو نفس الصفة التي هي القدرة والعلم من حيث قيامهما بالذات، وعلى هذا جرى في أسماء الصفات، حيث لا هي عين المسمى و هي غيره، وأما من أثبت الحال فيقول: إن هناك ثلاثة أمور: الذات و المعنى القائم به، و الحال و هو كون الذات قادرة والأولان موجودان، والحال هو كون الذات قادرة والأولان موجودان والحالة الثابتة و ليس بموجودة ولا ثابتة. وبالجملة فمن نفي الأحوال ينظر في الصفات الجارية على الذات، وهي الصفات القائمة في تعلقها، ومن أثبت ينظر في ذلك ويزيد بالنظر في إثبات الحال، وهذا في اصطلاح المتأخرين. وأما المتقدمون فلا فرق عندهم بين المعاني والمعنوية ويطلقون صفات المعاني عليها من لأن ما يسميه غيرهم صفات معنوية هو عندهم موجودة في نفسها، فإن كانت واجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة سميت صفة نفسية أو عالة نفسية ومثالها التحيز للجرم وكونه قابلا للأعراض مثلا، وأنت كانت الصفة غير موجودة في نفسها إلا أنها معللة بأنها تجب للذات ما دامت علتها قائمة بالذات سمية صفة معنية أو حالة معنوية، ومثالها كون الذات عالمة أو قادرة.(2)

الفرع الرابع: توحيد الله في أسمائه

قال محمد بن عبد الله العربي: إن من كلام الله القديم أسماء له هي المحكوم عليها بالقدم، كما أنه منه الأمر والنهي... وعلى هذا فالمراد بالتسمية القديمة دلالة الكلام أزلا على معاني الأسماء من غير تبعيض ولا تجزئة في الكلام، وهو الذي ينشرح له الصدر، ولا يرد أنهم

(1) سورة الكهف الآية:104.

(2) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بالمرتضي دار الكتب العلمية الطبعة:1 سنة:1989 بيروت ج/ 27 ص: 217.

لم يذكروا من أقسام الكارت الاعتبارية الأسماء القديمة، لأن تقسيمهم ليس حاصرا، بل اقتصر على الأهم باعتبار ما ظهر لهم، كنت ومدلوله لا يدخل تحت الحصر؟ وأشار العلامة الملوي في آخر عبارته إلى أن القدم هنا ليس بمعنى عن الأولية بل بمعنى أنها موضوعة قبل الخلق، فهي وضعه تعالى قبل خلقه. ثم ألهمها للنور المحمدي، التي للملائكة، ثم للخلق، خلافا للمعتزلة في قولهم بأنها من وضع البشر، وفي هذا الكلام تسليم أن الأسماء ليست أزلية كما لا يخفى. ونقل القرطبي أن من قال الاسم المشتق من السمو وهو العلو يقول: لم يزل الله موصوفا أي مسمى بأسمائه، قبل وجود الخلق وعند وجودهم وبعد فنائهم، لأنه لا تأثير لهم في أسمائه وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان في الأزل بلا أسماء وصفات، قفس خلق الخلق جعلوها له، وبعد فنائهم يبقى بدونها، وهو قول المعتزلة. والأسماء جمع اسم والمراد به ما دل على الذات بمجردها كالله تعالى.[1]

وقد أخبرنا الله عز وجل بنفسه عن أسمائه، إذ قال: {وَلِلهِ اِلَاسْمَآءُ اُلْحُسْنيٰ فَادْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ اُلذِينَ يُلْحِدُونَ فِےٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۖ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَۖ} [2] وقال أيضا عز وجل: {قُلُ اُدْعُواْ اُللَّهَ أَوُ اُدْعُواْ اُلرَّحْمَٰنَۖ أَيّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ اُلَاسْمَآءُ اُلْحُسْنيٰۖ}[3] كما وصف نفسه بأنه سميع بصير، وعليم حكيم، وقوي عزيز، ولطيف خبير، وشكور حي وغفور رحيم. وأنه كلم موسى تكليما، وأنه استوى على العرش، وأنه خلق بيده، وأنه يحب المحسنين، ورضي عن المؤمنين، إلى غير ذلك من الصفات الذاتية والفعلية، كمجيئه تعالى ونزوله وإتيانه، مما أنزله في كتابه ونطق به رسوله ﷺ.[4]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر ».[5]

المبحث الثاني: المقامات والفضائل في فكر البوطي

(1) شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني المسماة تحفة المريد الإبراهيم بن محمد البيجوزي الطبعة:1 دار الكتب العلمية سنة:1983 بيروت ص: 87-88.

(2) سورة الأعراف الآية:180.

(3) سورة الإسراء الآية:109.

(4) منهاج المسلم ص 20.

(5) صحيح البخاري للإمام البخاري تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا دار التقوى للتراث القاهرة الطبعة:1 سنة: 2001 كتاب الدعوات باب لله مائة اسم غير واحد ج/3 ص:308.

المطلب الأول: الفضائل

الفرع الأول: العبادة وإصلاح النفس وتزكيتها

إن العبادة في نظام الإسلام جزء أساسي لابد منه لقيامه وحسن تنفيذه، فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الإسلامية - أو التصور الإسلامي للوجود - حية في النفس، وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحس ويشعر، فتجعلها بذلك قوة دافعة، لها حرارتها ولها نورها، المنعكس على الأعضاء سلوكا وعملا. فشتان بين من يعلم عقليا ويقتنع فكريا بوجود الله. والعبادة تذكر الإنسان بموقعه الحقيقي من الوجود، ذلك أنه لا يتذكر ولا يحس إلا بالقرب العاجل والمنفعة الحاضرة، فهو يتذكر جسمه ونفسه من غير مذكر، إذ يدفعه الجوع والعطش إلى الطعام والشرب، وتدفعه اللذة إلى الاسترداد منها، وكذلك سائر غرائزه وشهواته. ومن وظائف العبادة ترقية الجانب الروحي من الإنسان، ذلك أن الإنسان يتكون من عناصر عدة: الجسمي العضوي، والعقلي ومما تحققه العبادات الإسلامية من أهداف تقوية الإنسان في معارك الحياة، فالحياة في نظر الإسلام صراع بين الحق والباطل في النفس والمجتمع، وعلى هذا بنيت الحياة الإنسانية منذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض. والعبادة هي التي تجعل الإنسان قويا في هذه المعركة إذا تذكره بالله الدائم الباقي القوي، وبمسؤوليته العظمى أمامه، وبحياته الأخرة الباقية، ومما يترتب فيها على أعماله من جزاء فهو يعيش لا ليأكل ويشرب ولا ليلهو وينام، ولا ليزرع ويجمع، ولا ليسيطر ويستعلي، بل ليكون نعيرا للحق على الباطل، والخير والشر، والعدل على الظلم.(1)

والعبودية هي البداية والنهاية في حق كل إنسان وفي حق كل تصرف ولذلك فهي كالماء للإحياء وكالهواء للإنسان وكالروحي للحي تتغلغل في الأجزاء والأعضاء وفي المقاصد والأعمال، ومن ههنا فإن الربانيين يعتبرون التركيز على معاني العبودية هو المهم الأول لهم، والمهم الأعلى عندهم. والعبادة هي تلك الصور المحددة التي رسمها الإسلام للتقرب بها إلى الله عز وجل واتخذها شعائر مميزة له، وعين لها مواقيت ومقادير وكيفيات لا مجال فيها للتبديل أو التعديل. وهذا ما يجعلنا نقصر الحديث على العبادات الأربع المعروفة. والأصل في العبادات

(1) نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع لمصطفى ديب بغا، ط 1 دار الفكر 1997 دمشق، ص 124 - 123.

أنها تؤدي امتثالا لأمر الله وأداء لحقه على عباده وشكرا لنعامة التي لا تنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسانية المادية وليس من الضروري أن تكون لها حكمة يدركها عقله المحدود. الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فلا معنى لأن يدرك السر في كل تفصيلاتها فالعبد عبد والرب رب. وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه! ولو كان الان لا يتعبد الله إلا بما وافق عليه عقله المحدود وعرف الحكمة فيه تفصيلا، فإذا عجز عن إدراك السار للي جزئية أو أكثر من جزئياته. أعرض ونأى بجانبه، إن العبودية لله شعائرها الإيمان بالغيب ولو لم تره، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره. فالله غني عن عباده كل الغنى، و إذا تعبدهم بشيء فإنما يتعبدهم بما يصلح أنفسهم، و يعود عليهم بالخير في حياتهم الروحية و المادية، الفردية و الاجتماعية الدنيوية والأخروية.[1]

والعبادة أيضا يراد بها التعبير عن ذلك الوصف المستكن في الفطرة، بالطاعة السلوكية، في أوامر لا يراد من تنفيذها إلا التلبية والطاعات، بدون أي نظر إلى المصلحة أو فائدة قد تستوعبها.[2]

فالعبادة كما قال الأستاذ العقاد شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها، ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها، إلا أمكن أن يتجه إلى الوضع الأخر، لو استبدل منها ما اقترحه المقترح بما جرت عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها.[3]

ومن هنا كان للإسلام فضل عظيم في أن أسبغ على جميع أعمال الإنسان صفة العبادة إذا قصد به وجه الله ومرضاته وعملت على وجهها المشروع وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة.[4]

أما تزكية النفس فهي من مهمات الرسل، وهي هدف للمتقين، وعليها مدار النجاة والهلال حان الله عز وجل. والتزكية في اللغة تأتي على معان: منها التطهير، ومنها النمو، وهي كذلك في الاصطلاح، فزكاة النفس وتطهيرها من أمراض وأفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها

(1) العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي، ط 24 مؤسسة الرسالة 1993 بيروت، ص -203 207.
(2) على طريق العودة إلى الإسلام اللبوطي ط | مؤسسة الرسالة 1981 بيروت ص 69.
(3) العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي ص 208.
(4) نظام الإسلام العقيدة والعبادة لمحمد مبارك، ط 2 دار الفكر.1981 دمشق ص 169

بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية تطهر وتحقق وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة وماهيته وثمراته الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك، في التعامل مع الله عز وجل ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح على أمر الله. ثم إن تركية القلوب والنفوس إنما تكون بالعبادات ونوع من الأعمال، إذا أدي ذلك على كماله وتمامه، فعند يحقق القلب بمعان تكون النفس بها مزكاة، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء، وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله والناس: مع الله قياما بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهادا في سبيله، ومع الناس على حسب الدائرة وعلى المقتضى والقيام على ضوء التكليف الرباني. وإذن فالتزكية لها وسائل مثل الصلاة والإنفاق والصوم والحج والذكر والفكر وتلاوة القرآن والتأمل والمحاسبة وتذكر الموت، إذا أديت هذه على كمالها وتمامها. والتي يحدث أن تزكية الأنفس يصيبها الضعف في الجيل بعد الجيل مما يقتضي تجديدا مستمرا لها، فكما أنه في كل يوم توجد في هذه الأمة أنفس جديدة، فالتزكية ينبغي أن تطال هذه الأنفس، ولعل ضعف التزكية في عصرنا كان أكثر منه في أي عصر مضى.[1]

الفرع الثاني: الصدق وفضيلته

قال تعالى: {مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضِيٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّنْ يَّنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلا}[2] { يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ إُتَّقُواْ ٱللَّه وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَۖ }[3] فهؤلاء وصفهم الله بالصدق ولو لا أنه من فضائل الأعمال ما وصفهم بذلك، و الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية و الإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء، وصدق في العمل، و صدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك، فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق.[4]

فالصدق الأول صدق اللسان: فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم أنه ما من وجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم

(1) المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى، ط 4 دار السلام سنة: 1988 القاهرة، ص 3.
(2) سورة الأحزاب الآية:23.
(3) سورة التوبة الآية:120.
(4) اتحاف السادة المتقين ج/9 ص:128.

مضنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي فإن كان يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناوله. وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذان لا تصل إلى غير الأصوات واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى، وجد له في الخير مجال رحب و له في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، و لا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المعاد بن جبل رضي الله عنه قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأخذ بلسانه قال: كف عليك هذا. فقلت يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم". [2]

ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع إلا فيما يطلقه لينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وأجله، وعلم ما يحمد في إطلاق اللسان أو بذم غامض عزيز. وخطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت، وجعل لزومه أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.[3]

فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما: الاحتراز عن المعارضين فقد قيل في المعارضين مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور عن الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه. والصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، وتعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعارضين ما وجد إليه سبيلا.[4]

---

(1) اتحاف السادة المتقين ج/9 ص:128.

(2) الجامع الكبير للترمذي تحقيق بشار عواد معروف دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1996 كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم الحديث: 2616 ج/4 ص:363.

(3) اتحاف السادة المتقين ج/9 ص:128.

(4) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ط جديدة دار الكتب العلمية بيروت، ج 4، ص:409.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه يناجي بها ربه كقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [1] فإن كان قلبه منصرفا عن الله مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. و قوله تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[2] فإذا لم يتصف بحقيقة العبودية و كان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صادقا.

الصدق الثاني: في نية الإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن يكون له باعث في الحركات والسكنات إلى الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل الصدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا. وهذا القول يتضمن إجبارا بقرينة الحال إذ يظهر صاحبه من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال كل ما في قلبه، فإن كذب في ذلك ولم يكذب يما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا. [3]

الصدق الثالث: في صدق العمل: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو الباطن قائم في السوق يبن شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو ما طلب بالصدق في الأعمال.[4]

إذن فمخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت من غير قصد فيفوت بها الصدق.

الصدق الرابع: في الوفاء و العزم: فإن النفس قد تسخر بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة، فإذا حققت الحقائق و حصل التمكن و هاجت الشهوات انحلت العزيمة و غلبت الشهوات و لم يتفق الوفاء بالعزم،، وهذا يضاد الصدق

(1) سورة الأنعام الآية:80.
(2) سورة الفاتحة الآية:4.
(3) إحياء علوم الدين ج/4 ص:410.
(4) نفسه ج/4 ص:412.

فيه، ولذلك قال الله تعالى: {مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَال صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضيٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّنْ يَّنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاًۖ}[1] و هذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها، ولهيجان الشهوة عند التمكن و حصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن تأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا أجده الآن لأني لا أمن أن ينقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها.» أشار بذلك إلى شدة الوفاء والعزم.[2]

الصدق الخامس في العزم: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه - أو بشطره - لو لقيت عدوا في سبيل الله قاتلت ولم أبالي وإن قتلت، وإن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم اعص الله بظلم ميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع وميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال: لفلان شهوة صادقة، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى.[3]

والصدق السادس: الصدق في مقامات الدين: كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن لهذه الأمور لها مبادئ يكلف الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه، كما يقال: فلان صدق القتال وقيل إذا طلبت الله بالصدق أعطاك امرأة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة وقيل عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك وقبل كل شيء وصادقة الكذب لا شيء وقيل علامة الكذاب جوده باليمين بغير مستحلف وقال ابن سيرين الكلام أوسع من أن يكذب ظريف وقبل ما أملق تاجر صدوق.[4]

---

(1) سورة الأحزاب الآية:23.

(2) المستخلص فيه تزكية الأنفس، ص: 271-272.

(3) نفسه ص:271.

(4) الرسالة القشيرية للقشيرية، الطبعة:1 مؤسسة الكتب الثقافية 2000 بيروت، ص 210.

والصدق بصفة عامة عماد الأمر و به تمامه و فيه نظامه و هو ثاني درجة النبوة قال تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً }(1) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر و البر يهدي إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق كي يكتب عند الله صديقا.»(2)

الفرع الثالث: الإخلاص

اعلم أن كل شي يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصا. والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصا، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص وضده يتوار دان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في المقصود والنيات.(3)

والإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك قال تعالى: { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }(4) والإخلاص هو إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد و هو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى، و يصح أن يقال الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص.(5)

والإخلاص هو إفراد القلب لعبادة الرب، وسره لبه، وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة، إذ لا يتم إلا به وإن صح دونه، إذ الإخلاص في الرياء والشرك والخفي، وسره نفي العجب وملاحظة النفس، والرياء قادح في صحة العمل، والعجب قادح في أعماله فقط. والأعمال كلها أشباح وأجسادا، وأرواحها وجود الإخلاص فيها، فكما لا قيام للأشباح

---

(1) سورة النساء الآية:68.

(2) رواه الامام مالك في الموطأ كتاب الكلام والغيبة والتقى، باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث رقم: 1859 الطبعة:1 المكتبة العصرية 2000 بيروت، ص: 550-551.

(3) المستخلص في تزكية الأنفس، ص 266.

(4) سورة الزمر الآية:3.

(5) الرسالة القشيرية ص:204.

إلا بالأرواح، وإلا كانت منبتته ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورا قائمة وأشباحا خاوية لا عبرة بها قال تعالى: {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ}(1)

والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص. فإخلاص العوام هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور. وإخلاص الخواص طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص خواص الخواص إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم تحقيق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية أو محبته وشوقا إلى رؤيته.

والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال. وقال أبو طالب رضي الله عنه: الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الحق، وأول الخلق النفس. والإخلاص عند المحبين أن لا يعملوا عملا لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس. وقال بعض المشايخ: صحح عملك بالإخلاص، وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة. وقال بعض العارفين: لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ويسقط الناس من عينه، لذلك قال آخرون كلما سقطت من عين الخلق عظمت في عين الحق، ولما عظمت في عين الخلق سقطت في عين الحق.(2)

أما الهروي فجعل الإخلاص تصفية العمل من كل شوب أي لا يمزج عمله ما يشوبه من شوائب إرادة النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، و إما طلب مدحهم، و الهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم و محبتهم، و قضائهم حوائجهم. وقيل الإخلاص استبراء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيرا من باطنه.

---

(1) سورة البينة الآية:5.

(2) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة، ط 3 مكتبة ومطبعة مصطفى الباجي الريحاني وأولاده 1982 القاهرة، ص:31-32.

والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره. وقبل الإخلاص نسيان رؤيته الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله. قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال مكحول: «ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.» وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء. وقيل الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين.»[1]

والإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب، وقيل هو إفراد الله عز وجل بالقصد والطاعات، والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ، والإخلاص هو كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للأخرة. قال يعقوب: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. قال السوسي: «الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص قد احتاج إخلاصه إلى إخلاصه. وقال الفضيل: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منها.»[2]

وفي الإخلاص ينبغي أن يكون العمل كله لله ومعه ومن أجله. وقد كفاك كل مخلوق وجلب لك كل خير. وإياك وأن تميل عنه بموافقة هوي وإرضاء مخلوق، فإن يعكس عليك الحال ويفوتك المقصود. وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه. فإن قيل: كيف يعيش معه؟ قلت: بامتثال أمره، واجتناب نهيه ومراعاة حدوده، والرضا بقضائه، وحسن الأدب في الخلوة، وكثرة ذكره، وسلامة القلب من الاعتراض في أقداره.[3]

---

(1) تهذيب مدراج السالكين لابن القيم الجوزية، حققه عبد المنعم صالح العلي العزي، الطبعة:1، المغرب، ص 322.

(2) تزكية النفوس للغزالي وابن القيم جمعها أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل، الطبعة:1 دار القلم بيروت ص 15-17.

(3) صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة:1 المكتبة العصرية 2002 بيروت، ص 341-342.

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ } [1] فليكن العيد شديد التفقد و المراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين و هو لا يشعر.[2]

والمبدأ الذي وضعه الإسلام في شأن العبادة: أن أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله. فإن حقيقة العبادة ليست شكلا يتعلق بالمظهر، ولا رسما يتصل بالجسد. ولكنها سر يتعلق بالقلب، وإخلاص ينبع من الروح، فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته. ولم يخلص لله في طاعته، وأداها رسوما خالية من الروح. كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى. فهناك يردها الله عليه، قال تعالى: {قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصا لَّهُۥ دِينِ } [3] إذن فالإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.[4]

الفرع الرابع: الورد

-1 الورد لغة: هو الشرب قال تعالى: {وَبِيسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ }[5] ويقال الورد الاشراف على الماءوغيره،دخله أو لم يدخله، ووقت يوم الورد بين الضمأين والماء الذي يورد والقوم يوردون الماء والإبل الواردة والنصيب من الماء.[6]

-2 اصطلاحا: وهو ما يرتبه العبد على نفسه، وما يتحفه الحق تعالى على قلوب أوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة، وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه، والورد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- ورد العباد والزهاد من المجتهدين: فهو استغراق الأوقات في أنواع العبادات وعباداتهم بين ذكر ودعاء وصلاة وقيام.

(1) سورة الحجر الآية:40.
(2) المستخلص في تزكية الأنفس ص: 268.
(3) سورة الزمر الآية:14.
(4) العبادة في الإسلام ليوسف القرضاي، ص 157
(5) سورة هود الآية:98.
(6) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية مصر الطبعة:4 سنة:2004.ص:1024.

ب- ورد السائرين: فهو الخروج من الشواغل والشواغب، وترك العلائق والعوائق وتطهير القلوب من المساوي والعيوب، وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الردائل.

ج - ورد الواصلين فهو اسقاط الهوى ومحبة المولى، وعبادتهم فكرة أو نظرة مع العكوف في الحضرة.

وأولى ما يعتني به العبد أيضا ما هو طلبه منه الحق تعالى وهو الورد، دون ما يطلب هو منه وهو الوارد، فالوارد من وظائف العبودية، وهو الذي طلبه من الحق تعالى، والوارد من وظائف الحرية ولذلك تطلبه النفس وتعشق إليه، وأين ما هو طالبه من مما هو مصلبنا منه، فالاعتناء بالورد أفضل وأكمل من الاعتناء بالوارد، لأن الورد من وظائف العبودية، و هي لا تنقطع ما دام العبد في هذه الدار، كما أن حقوق الربوبية لا تنقطع كذلك حقوق العبودية لا تنقطع.[1]

ثم إن الله عز وجل فرض على المسلم فرائض متنوعة، وطالبه بأعمال كثيرة، لأن القلب البشري يحتاج إلى أنواع من الواردات المتعددة، ولكل عمل، أثاره في القلب إذا صحت النية، وصلاح القلب بالقيام بالأعمال كلها فكل عمل يخلق نوعا من الأحوال في القلب وكل حال يحتاج إلى نوع من العمل الصالح حتى يكون... قال ابن عطاء: من علامات إتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات. وفي ذلك إشارة إلى أن المسلم عليه أن لا يفرط في الفريضة على حساب النافلة، وهي قضية يغفل عنها أكثر الخلق، فأكثر الخلق يجهلون فرائض الوقت و يستغرقون بأمور هي من باب المباحات، و بعضها من باب البدع، و يظنون أنفسهم أنهم يحسنون صنعا. ويقول أيضا ابن عطاء: إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وادامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرون ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد لما كان ورد. يفهم من كلام الشيخ أنه متى وجد الورد فقد وجد الوارد، أحس به صاحبه أم لم يحس، أحس به الأخرون أو لم يحسوا، وقد بين الشيخ أهمية الورد للإنسان. وأدب بعض جهلة الصوفية الباطلة الذين يحتقرون أهل الأوراد إذا لم تظهر عليهم بعض المعاني. وقد حض الشيخ ابن عطاء أهل الذكر ألا يتركوا

(1) إيقاظ الهمم، ص 209 210-.

أورادهم بسبب بقاء غفلة القلوب فلا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز. فالقلب البشري يحتاج إلى أدوية وأغذية وفي الصلاة دواء وغذاء، وفي الصوم والذكر دواء وغذاء.[1]

فللأوراد أهمية في حياة المسلم، وأهميتها تتجلى في إصلاح القلب وترقيته.

الفرع الخامس: الذكر

ذكر الله تعالى هو روح العبادة و غايتها، وذروة سنامها ويكفي دليلا على ذلك أن الصلاة وهي عماد الدين، إنما شرعت لتوصل إليه قال تعالى:{إِنَّنِيَ أَنَا أَللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِے وَأَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ }[2] وقد اعتبر بعض العلماء أن الذكر من أعظم العبادات و أكبر المطالب الدينية، فقد أمر تعالى به في غير ما آية من كتابه، ووعد الذاكرين بما لا عين رأيت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، كما أوعد الغافلين المعرضين عن الذكر. ومن الآيات التي تأمر بالذكر صراحة: قال تعالى: {فَاذْكُرُونِے أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِے وَلَا تَكْفُرُونِ }.[3]

و قال تعالى: { ۞وَاذْكُرُواْ أُللَّهَ فِے أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ}[4] قال تعالى: { وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ}[5] وقال تعالى: { وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلِ اِلَيْهِ تَبْتِيلاً }[6] وقال تعالى: { وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}[7] ومن الآيات التي تحث على الذكر ببيان ثمراته: قال تعالى: { اُلَذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اِللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اِللَّهِ تَطْمَئِنُّ اُلْقُلُوبُ} [8] وقال تعالى: { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمُ إِلَيٰ

(1) تربيتنا الرحية لسعيد حوى، الطبعة: 4 دار السلام سنة:1995 القاهرة، 85-86.
(2) سورة طه الآية:14.
(3) سورة البقرة الآية:151.
(4) سورة البقرة الآية:201.
(5) سورة الكهف الآية:24.
(6) سورة المزمل الآية:7.
(7) سورة الإنسان الآية:25.
(8) سورة الرعد الآية:29.

ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [1] و قال تعالى: { وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }.[2]

والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلا الله تعالى إلا بدوام الذكر على ضربين: ذكر اللسان، وذكر القلب فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه. وقيل ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات التي يقصدهم وإن البلاء إذا أظل العبد فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه. ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله تعالى إما فرضا وإما ندبا والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات والذكر بالقلم مستدام في عموم الحالات. قال أبو علي رحمه الله:

ما إن ذكرك إلا هم يزجرني قلبي وسري وروحي عند ذكرانا.

وفي بعض الكتب أن موسى عليه السلام قال: يارب أين تسكن؟ فأوحى الله تعالى إليه في قلب عبدي المؤمن، ومعناه سكون الذكر في القلب فإن الحق سبحانه وتعالى منزه عن كل سكون وحلول وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل. [3]

والذكر يتسع حتى يشمل كل الطاعات، لأن العبادات كلها تحتاج للنية، حتى يؤجر صاحبها عليها، ومن نوى بعلمه وجه الله وابتغاء مرضاته فقد ذكره. ومال النية أن يستصحبها في العبادة من أولها إلى آخرها، وإن كان محلها عند بدء العبادة، فهي في الصلاة تقارن تكبيرة الإحرام وكمال الصلاة باستصحاب النية إلى السلام. ولكن لفظ مجالس الذكر ينصرف للوهلة الأولى كما جاء في سنته ﷺ لنوع خاص من الطاعات. هو تحلق مجموعة من الذاكرين يجتمعون على تسبيح الله وتكبيره وتحميده وتمجيده، أو على ذكره وتذكر نعمه عليهم، وخاصة نعمة الإسلام.[4]

(1) سورة الزمر الآية:22.

(2) سورة الأحزاب الآية:35.

(3) الرسالة القشيرية، ص 218 - 220 - 221.

(4) ذكر الله عزوجل للدكتور الحسيني أبو فرحة سلسلة كتب التصوف، رقم الكتاب 27، ص54-55.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزل عليهم السكينة، وغشيهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده".(1)

وقال أيضا رسول الله ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت".(2)

لقد أفادت هذه النصوص وجوب ذكر الله، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ لكنها في الوقت نفسه تمثل أوامر مجملة تحتاج إلى بيان كيفية الذكر ومتعلقاته. ولم يترك النبي ﷺ مجالا من مجالات الذكر ولا موقعا من مواقع التي يؤمر فيها بالذكر إلا وبين صيغة الذكر المطلوب في ذلك الظرف. وقد يرد الذكر بالأجر المرتب عليه، وقد لا يرد التصريح به فينبغي للمؤمن أن يعتقد ثبوت الأجر في كل الأذكار الواردة، وأما التصريح وعدمه فلحكم يعلمه الله. ولا ينبغي له أن يرتب هو أجرا على ذكر معين ولم يذكر الشارع جزاءه، وكذلك الأمر بالنسبة للعدد قد يرد الذكر محددا بعدد معين وقد يرد مطلقا من غير تقييد بعدد. وقد ذكر العدد الصحيح بالأجر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، وميت عنه مائة شيني، وكانت له حرز من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه". (3) ومن هذه التوطئة يتلخص أن الأذكار حتى تكون شرعية تنتج التقوى والصلة بالمولى والثواب في الآخرة لا بد أن يتوخى بها أمور تضاف إلى حسن النية وحضور القلب وهي:

1 -أن تكون بما ورد عن الشارع، 2 - أن يراعى فيها العدد عن الشارع 3 - أن لا يشرع لها الإنسان أجرا محددا، 4 - أن لا يكون جهرا لأنه منهي عنه، 5 - أن لا يضاف إليها أي شيء من الكيفيات و الهيئات.(4)

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر باب رقم:11رقم الحديث: 2699 ج/4 ص:2074.

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب فضل ذكر الله تعالى رقم الحديث:5928 ج/3 ص:307.

(3) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب فضل التهليل رقم الحديث:5924 ج/3 ص:305-306.

(4) التصوف الإسلامي لعبد القادر أحمد عطا، ط 1 دار الجيل 1987 بيروت، ج/ 1، ص: 271-277-278.

قال ابن العباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرا كَثِيرا}[1] إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم و عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فأن الله تعالى لم يجعل له أحدا ينتهي إليه و لم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على تركه فقال: {فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰما وَقُعُودا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ } [2] بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغني والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال.[3]

ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت، بل ما من وقت إلا والعبد مأمور بذكر الله فيه، إما فرضا وإما ندبا. والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات والذكر بالقلب مستدام في جميع الحالات.[4]

والذكر منشور الولاية، من أعطيه اتصل به، ومن منفعة عزله. وهو وقت قلوب القوم التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا. والذكر هو جلاء القلوب وفعالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذكر في ذكره استغراقا ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقه، وإذا وطأ قلبه للسانه في ذكره نسي في جنب ذكره كل شيء وبه يزول البكم عن الألسنة ويزول الوقر عن السماع، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، وهو باب الله المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته. قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.[5]

وقال النووي: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر الله تعالى، كما قال سعيد بن جبير رضي الله عنه و غيره من العلماء[6]. وأكد ذلك الحافظ بن حجر في شرح المشكاة، فقال: "مجالس الذكر هي مجالس سائر الطاعات ومن قال: هي مجالس الحلال والحرام فقد أراد التنصيص

(1) سورة الأحزاب الآية:41.
(2) سورة النساء الآية:103.
(3) تفسير ابن كثير، الطبعة: 5 دار النهضة العربية 1996 بيروت ج/ 3 ص: 476.
(4) الرسالة القشيرية، ص 220.
(5) تهذيب مدارج السالكين، ص 463.
(6) الأذكار النووية، للنووي الدمشقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ص:13

على أخص أنواع الذكر"[1] وبتفسير ابن حجر لكلام من خصص مجالس الذكر بمجالس الحلال والحرام يفسر كلام كل من خصص مجالس الذكر بطاعة دون سواه، فيفهم من التخصيص أن القائل به يرى أن هذه الطاعة أفضل من غيرها ولا يفهم منه أن سائر الطاعات باستثناء ما ذكره ليست من الذكر، وهذا يجمع بين كلام من قال: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، أي دروس الفقه من عبادات ومعاملات. هذا ومن العلماء الذين خصصوا الذكر بطاعة دون سواها على الجمع المتقدم القرطبي في المفهم فقد قال: مجالس الذكر هي مجالس العلم والتذكير، وهي المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ﷺ، وأخبار السلف الصالح، وكلام الأئمة والزهاد. هذا ويكون الذكر بالقلب وباللسان، والأفضل ما كان بالقلب واللسان جميعا، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل.[2]

وهناك من قسم الذكر، إلى ثناء ودعاء ورعاية. فأما ذكر الثناء نحو سبحان الله، والحمد لله. وذكر الدعاء مثل قوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}[3].

وذكر الرعاية مثل قول الذاكرين الله معين الله ناظر إليه، الله شاهد. والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة أيضا للثناء على الله، والتعرض للدعاء والسؤال، والتصريح به، و الأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية، ومصلحة القلب، والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوسواس والشيطان، وفيها تعلم القلب مناجاة الرب تملقا تارة، و تضرعا تارة، وثناء تارة و استعظاما تارة، و غير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب.[4]

يقول ابن العربي: عليكم بذكر الله في السر والعلن وفي أنفسكم وفي الملا، فإن الله يقول: { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ }.[5]

فجعل جواب الذكر من العبد الذكر من الله، وأي ضراء على العبد من الذنب؟ وكان يقول ﷺ في حال الضراء: الحمد لله على كل حال وفي السراء الحمد لله المنعم المفضل فإنك

(1) فتح الإله في شرح المشكاة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت، ج/7 ص:328
(2) ذكر الله سبحانه وتعالى للدكتور الحسيني ابو فرحة، ص 41-42.
(3) سورة الأعراف الآية:22.
(4) تهذيب مدراج السالكين ص: 468.
(5) سورة البقرة: الآية:151.

إذا أشعرت قلبك ذكر الله دائما في كل حال لا بد أن يستنير قلبك بنور الذكر، فيرزقك ذلك النور الكشف، فإنه بالنور يقع الكشف للأشياء. فعليك بالذكر الثابت في العموم فإنه الذكر الأقوى وله النور الأضوى والمكانة الزلفي، ولا يشعر بذلك إلا من لزمه وعمل به حتى أحكمه.(1)

وقد أشار البوطي إلى أن كثير ممن ينتسبون إلى المذهب المزعوم المسمى بالسلفية، ينكرون مثل هذا الذكر، وينكرونه على أصاحبه، وينسبونهم إلى الابتداع والضلال، مستدلين بأن هذه الجلسة المحددة بهذا الشكل وعلى هذا النظام، لم تكن معروفة في عصر السلف، ولا نرى شاهدا عليها في الكتاب والسنة. غير أن الذين يتداعون إلى هذه الحلقات و يحضرونها، يحتجون بالعموم الذي يدل عليه قول الله تعالى: { اِ۬لذِينَ يَذْكُرُونَ اَ۬للَّهَ قِيَٰما وَقُعُودا وَعَلَيٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِے خَلْقِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِۖ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلا سُبْحَٰنَكَۖ فَقِنَا عَذَابَ اَ۬لنّ۪ارِۖ }(2) غير أن الذكر قد يلتبس بعمل منهي عليه كالقص والتثني فهذا ممنوع وخارج من عموم النص القرآني العام استنادا إلى دليل حرمته - الرقص والتثني - وجل من ينسبون أنفسهم إلى مذهب السلفية ينكرون هذا الذكر و يحرمونه، وينسبون من يذكر الله باسمه المفرد وحده إلى الضلال، و لكن نعتهم ابن تيمية رحمه الله بالضلال والابتداع. ويستدلون على ذلك بأن جميع ما ورد من صيغ الأذكار في القرآن الكريم و السنة جمل أو كلمات ذات دلالة على معنى يتضمن حكما كاملا، مثل: لاإله إلا الله، أستغفر الله، سبحان الله، لاحول ولا قوة إلا بالله، وليس فيها لفظ جلالة المفرد، فذكر الله بهذا اللفظ بدعة باطلة.(3)

ويؤكد ابن رجب الحنبلي جواز الذكر بالاسم المفرد فيقول: كلما قويت المعرفة صار الذكر يجري على لسان الذكر من غير كلفة حتى كان بعضهم يجري على لسانه في منامه الله.(4)

(1) الوصايا لمحي الدين بن العربي الطبعة:1 دار الجيل 1988 بيروت ص: 11 - 16.
(2) سورة آل عمران الآية:191.
(3) السلفية للبوطي الطبعة:1 دار الفكر سنة: 1988 دمشق ص: 191-192.
(4) ذكر الله سبحانه وتعالى للحسيني أبو فرحة، ص 44.

و ربما ناقش ابن تيمية في قوله إن الاستمرار على ذكر الله باسمه المفرد، من شأنه أن يزج الذاكر في أوهام الحلول ووحده الوجود، بأن ذكر الله تعالى باللفظ أو القلب، و بأي أسمائه عز وجل من شأنه أن يرقى بالذكر لكل من حالتي الجمع والفرق في اعتدال وتناسق فكما أن ذكر الله تعالى ينبه الذاكر إلى معاني الجمع، فهو يعبده في الوقت ذاته إلى حقائق الفرق.[1]

وقد تغلب على كثير من الذاكرين، وخاصة الذاكرين الله ب: لا إله إلا الله أو بالاسم المفرد، تغلب عليهم الحركة. قال الزهير البابي: «إن لله عبادا ذكروه فخرجت نفوسهم اعظاما واشتياقا وقوم ذكروه فوجلت قلوبهم فرقا وهيبة، فلو حرقوا بالنار لم يجدوا من النار، وآخرون ذكروه في الشتاء فارفضوا عرقا من خوفه. وقوم ذكروه فحالت ألوانهم، وقوم ذكروه فجفت أعينهم سهرا.» كما يضيف بعض الناس بعد الذكر على السبحة. ويبدوا أن هذا الضيق بالسبحة شي قديم، فقد تعرض الشيخ الشعراني لشيء من هذا، وذكر طرفا من الأدلة على أن التابعين ومن بعدهم سبح جمع منهم على السبحة. مما يدل على عدم الإنكار على التسبيح عليها. قال الشيخ الشعراني: بلغني أن بعض الفقهاء يعيب على من يسبح على السبحة، فقلت له: الأمر سهل فاستفتي العلماء في ذلك فاختلفت فتاويهم، فأغاثني الله بمؤلف للشيخ السيوطي رحمه الله في الأمر بالتسبيح على السبحة وأن أول من سبح بها الحسن البصري رضي الله عنه.[2]

لذلك اعتبر الذكر من أعظم العبادات وأكبر المطالب الدينية، ودوامه تكثيرا لشهود العبد يوم القيامة، وسببا لاشتغال العبد عن الكلام إلى ظل من الغيبة والنميمة وغير ذلك، فهو قوة القلوب والروح، فإذا أفقده العبد صار بمنزلة الجسد إذا حيل بينه وبين قوته. ومنها: أن يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، ويرضي الرحمان عز وجل، ويزيل الهم والغم عن القلب، ويجلب له الفرح، والسرور والبسط، وينور القلب والوجه، ويكسو الذاكر المهام والحلاوة والنظرة، ويورثه محبة الله عز وجل وتقواه والإنابة إليه، وكذلك يورث العبد ذكر الله عز وجل.[3]

---

(1) السلفية للبوطي ص:194.

(2) ذكر الله سبحانه وتعالى ص: 56 - 57.

(3) تزكية النفوس ص 45-47.

لذلك أمر الله بالإكثار من ذكره فسارع الصحابة رضوان الله عليهم للإكثار من ذكره، وتفننوا في كيفية الإكثار من ذكر الله عز وجل، وعد ذلك بوسائل مختلفة حرصا من عنهم على أن يذكر الواحد منهم ما ألزم نفسه به. والصادق المصدوق لما رأى منهم ذلك، أخذ بأيدهم وعلمهم من صيغ الذكر الكثير الكثير.

الفرع السادس: الزهد والورع

الزهد في اللغة ترك الميل إلى الشيء، وفي الاصطلاح لأهل الحقيقة هو بعض الدنيا والأعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك.[1]

والزهد هو انحراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وأما العم الثمر لهذه الحال فهو العلم يكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ فمن عرف أن ما عند الله باق، وأن الأخرة خير وأبقى، كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج. فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، وبقدر اليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع، وقد مدح القرآن الكريم الزهد في الدنيا و ذم الرغبة فيها.[2]

قال تعالى: { بَلْ تُوثِرُونَ اَ۬لْحَيَوٰةَ اَ۬لدُّنْيا وَالَاخِرَةُ خَيْر وَأَبْقِيٰٓ } [3] وقال أيضا عز وجل: {تُرِيدُونَ عَرَضَ اَ۬لدُّنْي۪ا وَاللَّهُ يُرِيدُ اُ۬لَاخِرَةَۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ}[4] وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، و أحبني الناس، فقال أزهد في الدنيا يحبك الله و ازهد فيما عند الناس يحبك الناس».[5]

فالزهد هو الإعراض عن الشيء لاستقلاله، واحتقاره، وارتفاع الهمة عنه، يقال شيء زهيد أي قليل خفير، قال يونس بن ميسرة: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة

---

(1) ابن تميمة والصوفية لدرنيقة والمصري، الطبعة:1 مكتبة الإيمان المكتب الإسلامي سنة: 1992 مصر ص: 66.

(2) تزكية النفوس ص: 64.

(3) سورة الأعلى الآية:16-17.

(4) سورة الأنفال الآية:68.

(5) رواه ابن ماجة في سننه كتاب الزهد باب الزهد في الدنيا، رقم الحديث:4100، ج/ 2، ص: 1373-1374.

المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك و ذامك في الحق سواء. قال الفضيل: أصل: الزهد الرضى عن الله عز وجل، و قال: القنوع هو الزاهد، وهو الغني، فمن حقق اليقين، ووثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفا.(1)

فكل شخص اختار طريق الزهد والتصوف، عليه ألا يشتغل بأمور الدنيا ولا يتطلع إلى أي حظ أو خطة من خططها مهما صغرت أو كبرت، ويبتعد عن ذكر أهلها بخير أو شر، ويشتغل بحاله ونفسه عمن سواه، ويترك الأنكار على كافة الخلق من الحكام أو غيرهم.(2)

والزهد في رأي ابن تيمية، يعني الإعراض عن فضول الدنيا وزينتها وزخرفها، لذلك عرف الزهد لدى مختلف الشعوب والأمم، فقد كان في المشركين زهاد، وفي أهل الكتاب زهاد، وفي أهل البدع زهاد... والزهد في رأي ابن تيمية ليس تورعا للأهل والأولاد والسياحة في البلاد لغير هدف مشروع. كما يحذر من الخلط بين الزهد والكسل والعجز والبطالة، كمن يزهد هربا من تعب الدنيا وطلبا لراحة، أو من يزهد ليسلم من أدى الناس، أو يزهد ليتمكن من أكل أموال الناس بالباطل...

والزهد الحقيقي هو الزهد الذي فيما لا يحبه الله ورسول ﷺ، ويقومون بما يأمر به المولى سبحانه ورسوله، لأن ترك المكروه بدون فعل المحبوب ليس بمطلوب.

فالعادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا، والزهد على الزهد في الدنيا، والزهد فيما هو مقدور عليه ولذا قيل لبن المبارك: يا زاهد، قال: الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذا جاءته الدنيا راغبة تركها، وأما أنا ففيما ذا زهدت.(3)

ثم اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الراهبين من ردوا أنفسهم كل يوم قدر يسير من

(1) تزكية النفوس ص: 65.
(2) مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة لأبي العباس بن العريف،جمعه أبو بكر عتيق من مؤمن،حققه عصمت عبد اللطيف دندش ط دار الغرب الإسلامي 1993 بيروت لبنان، ص 33-34.
(3) ابن تيمية والصوفية ص: 69.

الطعام ولازموا داراً لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، فإذا معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد. على الزاهد. وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات:

- العلامة الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: {لِّكَيْلَا تَاسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتِيٰكُمْۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[1]

- العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول علامة الزهد في المال، والثاني علامة، الزهد في الجاه.

-العلامة الثالثة: أن يكون أُنْسُه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب من حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله، وأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان. فإذن علامات الزهد استواء الفقر والغني والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرغ عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة وقال يحيي بن معاذ: علامة الزهد السخاء بالموجود. وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضا: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بل تكلف وقال أحمد بن حنبل: علامة الزهد قصر الأمل.[2]

فالزهد كما جاء في تعريف للإمام علي كرم الله وجهه ليس اعتزالا لدنيا أو هجرا للكسب والعمل من أجل زيادة القدرات من مستلزمات الحياة مما يكون عنصر قوة الإسلام والمسلمين. قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: «لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد وجه الله به تعالى يسمى زاهدا ولو أنه ترك جميع ما في الأرض ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسم زاهدا لا لكان لله تعالى في ذلك عابدا. فليكن أخذك الذي تأخذه وتركك الذي تتركه الله عز

(1) سورة الحديد الآية:22.

(2) المستخلص في تزكية الأنفس ص 275 - 276.

وجل لا لغيره، واعلم أن الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق تناول حية قد عرف ضرها ونفعها، وأمن سمها، فيتحرى بتناولها الوجه الذي ينتفع هو به وينفع غيره.»(1)

فالزهد الصحيح إذا ليس معناه هجر المال والعيال، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد، والاعتزال في البيوت المظلمة، والصمت الطويل من غير موجب، لأن اتخاذ هذا النوع من الزهد نمط للحياة يعد سلوكا سلبيا، فالزهد عد السلف الصالح يعني التوسط، فلا إفراط ولا تفريط. إذا وجدوا شيئا من أسباب الحياة انتفعوا بها وتقووا بها، وإذا طرأت ظروف قاهرة كالجذب غيروا نمط العيش واكتفوا بأقل ما يمكن. فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان أبيض اللون جسيما يأكل السمن واللبن في أيام الرخاء، فهو الذي صار نحيفا أسود اللون حين خفض من مستواه الغذائي عام الرمادة، فهذا هو الزهد عند السلف. أما الزهد عند أنصار الفكر الصوفي بعيد اكل البعد عن الزهد الذي عرفه السلف الصالح، وهذا من الوضوح بحيث يتعرف به الصوفية أنفسهم.(2)

وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد وكل أشار إلى ذوقه ونطق عن حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم. والكلام بلسان العلم، أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان. قال سفيان الثوري رحمه الله: «الزهد في الدنيا إنما هو قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لباس العباء.» وقال الجنيد رحمه الله: «الزهد خلو اليد من الملك والقلب من التتبع، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «الزهد على ثلاثة أوجه ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني ترك الفصول من عفه الحلال وهو زهد الخواص، والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.» قال أبو حفص رحمة الله عليه: «الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا فلا زهد، وما أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن البصري رحمه الله قال: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال.»(3)

وقال يحيى بن معاذ: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع وعز بلا رياسة. فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه، وراحته أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان، ولا ريب أن النفس إذا نالت

(1) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني، مطبعة الوطن 1299 هـ مصر، ص 161.

(2) الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوح، الطبعة:1 دار الهجر للنشر والتوزيع 1996 الرياض، ج/1 ص:29-32.

(3) تهذيب مدراج السالكين ص:284-285.

حظا صالحا من الدنيا قويت وسرت واستجمعت قواها وجمعتها وزال تشتتها. فلا يصح زهد العبد حتى يقطع اضطراب الدنيا من قلبه، فالزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء.» [1]

أما الورع فهو مقام شريف يرقى إليه من كان متصفا بالتقوى وخشية الله تعالى، مما يدفعه إليها تحري كل ما يعرض له من أعراض الدنيا متفحصا. فإذا وجد فيه أدني شبه غادره تجنبا للوقوع في الحرام، لأن من حام حول الحمى كاد أن يقع فيه. يقول الطوسي في وصف أهل الورع: «متهم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه وهي ما بين الحرام البين والحلال البين، وما لا يقطع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك فيتورع عنهما.[2]

و الورع ملاك الدين الحارس لأهل الإيمان من مقاربة حمى الله وحدوده التي أخبر بها الشرع و هاجم ابن العريف العمال والفقهاء الذين يمارسون الفقه بلا ورع، والذين انشغلوا عن مصالح الناس بكنز الأموال، و أهملوا أمور العباد، وتصامموا عن السماع شكاوي المظلومين وسماهم علماء أهل السوء وكبراء الدين المغرورين.[3]

والورع أيضا هو ترك الشبهات كذلك قال إبراهيم بن أدهم الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات. وقال ﷺ لأبي هريرة:» كن ورعا تكن أعبد الناس».[4] [5]

وممن اشتهر بالورع الشديد أبو بكر رضي الله عنه، الذي لم يكن ليأكل من طعام قبل أن يسأل عنه، ويتحرى مصدره فإن وجد فيه شبهة امتنع عن تناوله. ومن ذلك قصته مع خادمه الذي قدم له طعاما أخذه بدل رقي مارسه لقوم في جاهليته وأكل منه أبو بكر لقمة، ولما عرف تقيأها، وأقسم أنها لو لم تخرج إلا مع نفسه لأخرجها.

---

(1) تهذيب مدراج السالكين ص:286.

(2) اللمع في التصرف للطوسي تصحيح رينولد نيكلسون، مطبعة أبريل 914اليدن هولندا ص: 44.

(3) مفتاح السعادة وتحقق طريق السعادة ص: 54.

(4) رواه ابن ماجة في سننه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار إحياء الكتب العربية وفيصل عيسى الباجي الحلبي كتاب الزهد باب الورع والتقوى حديث رقم:4217 ج/2 ص:1410.

(5) الرسالة القشيرية ص:110.

والدافع إلى الورع هو التبرؤ من مظالم الخلق بأكل حقوقهم حتى لا يكون لأحد على المرء مظلمة يقاضي عليها يوم الحساب. وهذا الأمر يجب أن يكون دافعا للإنسان بألا يقدم على أي شيء أصابته ريبة حوله، أو حاك في صدره شك فيه.[1]

قال يحي بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: جلساء الله تعالى غدا أهل الورع والزهد. ورؤي سفيان الثوري في المنام وله جناحان يطير بهما في الجنة من شجرة إلى شجرة، فقيل له بما نلت هذا؟ فقال بالورع. وتكلم أبو سعيد الخراز في الورع فمر به عباس بن المهتدي فقال: يا أبا سعيد أما تستحي تجلس تحت سقف أبي الدوانيق وتشرب من بركة زبيدة وتتعامل بالدرهم المزيفة، وتتكلم في الورع.[2]

فالإنسان الورع هو الذي يقوم على الإنفاق والتصرف بالحلال الطيب وهو ذاكرا لله تعالى ومراقبا له، فيرعى الله وحق العباد حتى في حلاله. سئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافي فقال: الحلال الذي لا يعصي الله فيه والحلال الصافي الذي لا ينسى الله فيه، فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذي سئل عنه الشبلي رحمه الله فقال: «أن تتورع أن لا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين.»[3]

المطلب الثاني: المقامات

الفرع الأول: التوبة

التوبة أول منزلة من منازل السالكين، وأول مقام من المقامات الطالبين.

وحقيقة التوبة في لغة العرب: الرجوع. يقال تاب أي رجع. فالتوبة الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه.[4]

---

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته لأسعد السحمراني، الطبعة:1 دار النفائس 1987 بيرت ص: 128.

(2) الرسالة القشيرية ص: 111- 113 – 114.

(3) اللمع في التصرف للطوسي ص: 46.

(4) الرسالة القشيرية ص: 92.

والتوبة عودة إلى الله تعالى وطاعته بعد معصيته أو ذنب، وتكون العودة عادة مقرونة بندم ومحاسبة النفس، حتى لا تحصل أخطاء الماضي في المستقبل، والله الرؤوف الرحيم بعباده إلى محاسبة أنفسهم والتوبة لا رجوع بعدها. وهو سبحانه يتلقى في الليل مسيء النهار إذا تاب، ويتلقى مسيء الليل في النهار إذا تاب، والملائكة تسرع حين توبة العبد بزف الخبر إلى الله عز وجل الذي يسر بعبده التائب العائد إلى طاعته. لقد خاطبنا الله تعالى في باب الترغيب بالتوبة في قوله العزيز: { فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور رَّحِيمٌ }.[1]

والتوبة المطلوبة من العبد عرفها النص القرآني بالتوبة النصوح التي لا رجوع للمعصية بعدها وفي هذا كان الخطاب الإلهي: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَة نَّصُوحاً }[2]

لهذا عد الصوفيون التوبة مطلقا أساسيا لسلوك الطريق، وهي شرط لا بد منه، والعبد التائب ينتقل من مقام إلى مقام فينسى ذنبه بعد الندم وما ينسيه الذنب هو ذكر الله تعالى والتوجه إليه بالكلية ابتغاء مرضاته.[3]

وللتوبة كأي عمل شروط رئيسية وأخرى ثانوية رغم فائدتها. يقول الأصفهاني: «فإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة... وللتوبة شرائط فرضا ونفلا، ففرضها ترك الذنب مع عدم العودة إليه، ونفلها التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان.»[4]

قال رسول الله ﷺ: « الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِيَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام واستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعديه ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده.»[5]

---

(1) سورة المائدة الآية:41.

(2) سورة التحريم الآية:8.

(3) التصوف منشوه ومصطلحاته ص: 124.

(4) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني مطبعة الوطن 1299 هـ مصر ص:131.

(5) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب التوبة رقم الحديث 6308، ج/ 4ص: 163.

ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم ولا الضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى صراط مستقيم ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن نظام، تضمنتها أبلغ تضمن، فمن أعطى الفاتحة حقها علما وشهودا وحالا ومعرفة علم أنه لا تصح قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها.[1]

والتوبة النصوص في رأي ابن تيمية، تحفظ صاحبها من عقب الله، لكن حق المظلومين لا يسقط البتة، لذلك على التائب أن يعوض المظلوم بمظلمته، ويشترط في التوبة المقبولة أن تحصل قبل فوات الأوان، أي قبل معاينة الموت، أن من تاب عندها مات على الكفر كما حصل لفرعون.[2]

فإذا فكر الإنسان في سوء صنيعه، وتفحص قبيح سلوكه حصلت في قلبه حالة النية على التوبة والرجوع، والإقلاع عما هو أسوأ إلى الأحسن، في هذه الحالة يكون الله بعون العبد فيساعده على الهداية وتصحيح العزيمة وتجويد الكسب. والتائب من اكتفى بالضروري من كل شأن من شؤون حياته، وشغل نفسه بذكر الله، ومحاسبة النفس.[3]

ويقول المكي: «ينبغي لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم في كل طرفة، ويدعوا كل شهوة، ويتركوا الفضول، وهي ستة أشياء: ترك فضول الكلام وترك فضول النظر، وترك فضول المشي، وترك فضول الطعام والشراب واللباس، ولا يقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات.»[4]

وحاول بعض الصوفيين أن يميز بين نوعين من التوبة، وهو الحسين المغازلي عندما سئل عن التوبة، فقال: تسألني عن التوبة الإنابة أو توبة الاستجابة؟ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ قال: أن تخاف من الله تعالى من أجل قدرته عليك. قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك.[5]

---

(1) تهذيب مدراج السالكين ص 121 - 122.

(2) ابن تيمية والصوفية ص: 54 - 56.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 125.

(4) قوت القلوب في معاملة المحبوب للمكي، مطبعة الباجي الحلبي 1961 مصر، ج /ص: 370.

(5) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي نشر وتصحيح أرثرجون أو بري، مكتبة الخانجي،1993 مصر ص: 6.

الفرع الثاني: التوكل

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكل إليه وكيلا، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يهتم فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.[1]

إن التوكل على الله هو دليل الإيمان الصادق وهو حصن يمنع الإنسان من السقوط أمام المصاعب، لأنه يفتح أمامه أبواب الأمل والرجاء بنصر الله وتوفيقه، فما من مؤمن أعد العدة المطلوبة منه إلا ومن واجبه أن يقرن ذلك بالتوكل، ومن يتوكل على الله جعل الله له مخرجا. لذلك جاء في القرآن الكريم أكثر من أية تدل على التوكل و منها: قوله تعالى { وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ}[2] وقال أيضا عز وجل: وَمَنْ يَّتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّه فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّه بَٰلِغُ اَمْرَهُۥ}[3] قال الجنيد عندما سئل عن التوكل: هو اعتماد القلب على الله في جميع الأحوال. لكن التوكل لا يعني بحال من الأحوال أن يقعد الإنسان عن الكسب، وأن يهجر العمل، ليشكل بذلك عالة على أهله ومجتمعه، فهذا السلوك مدعاة للتخاذل والهروب الذي يشل الطاقات في المجتمع، ويجعل منه لقمة سائغة لكل طامع. ليس في الإسلام ما يأمر بالتوكل وضعف الهمة، ولا بد من التوكل المقرون بقوة العزيمة والعمل وهذا ما فعله النبي ﷺ وصحبه وكلنا يعلم أن النبي محمد ﷺ لم يأكل من صدقة أو زكاة، وقبل الهدية.[4]

والتوكل هو الضراعة والاستغاثة إلى الله والاستغاثة والاستعانة به ليطفئ نار الدعابة والضحك في أقرب مدة، ومن نفر عن حائل بينه وبين الله فقد توكل على الله سبحانه وتعالى.[5]

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: التوكل جماع الإيمان، وتحقي التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله

(1) المستخلص في تزكية الأنفس، ص: 277.

(2) سورة المائدة الآية:25.

(3) سورة الطلاق الآية:3.

(4) التصوف منشوه ومصطلحاته ص: 129 - 130.

(5) مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ص: 146.

أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي بالجوارح طاعة لله، والتوكل عليه بالقلب إيمان.[1]

الاستعانة والإنابة هي العبادة بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به مصاحبه حقيقة. يقول الشيخ سهل بن عبد الله التستري: العلم كله باب من التعبد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلقة التوكل، وكثرة حوانج العالمين، فأهل السماوات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، إن تباين معقل توكلهم.

وأفضل التوكل: التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول ملك، ومن متوكل في حصول رغيف.[2]

والتوكل عند الصوفية هو الثقة بما عند الله سبحانه واليأس عما في أيدي الناس. ويعرف ابن تيمية التوكل بأنه: مناضلة عن النفس في طلب القوت والمتوكل يتوكل على الله في إصلاح قلبه ودينه، وحفظ لسانه وإرادته.[3]

وإذا تجاوزنا المؤثرات الهندية والرهبانية المسيحية التي ببعض الصوفية إلى تشجيع الناس على المسألة والاعتماد في الرزق على الآخرين مما لا يتوافق مع الدين الحنيف فإننا نرى أن الصوفية المعتدلين قد أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ وتثبت وتحرز من الشبهات، وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العودة على الأغيار والعطف على الجار. وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه.[4]

(1) تزكية النفوس ص: 99.

(2) تهذيب مدراج السالكين، ص: 336-337.

(3) ابن تيمية والصوفية ص: 62.

(4) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص: 57.

وسئل يحي بن معاذ متى يكون الرجل متوكلا فقال إذا رضي بالله تعالى وكيلا. وسئل الحرث المحاسبي عن المتوكل هل يلحقه طمع فقال يلحقه من طريق الطباع خطرات ولا يضره شيء ويقويه على إسقاط الطمع اليأس عما في أيدي الناس. قال علي الدقاق: التوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص. وأضاف قائلا: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبيا محمد ﷺ[1]

الفرع الثالث: المحبة

الحب صفاء مودة القلب، والعرب تسمى بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، والحباب هو ما يعلو الماء عند الغليان الشديد، وعلى هذا المحبة غليان في القلب، وثوران ناتج عن العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب. والعرب تقول أحب البعير بمعنى أنه يبرك فلا يقوم، كأن المحب لا يبرح بقلبه من ذكر محبوبه وللصوفية كلام كثير في تحديد معنى المحبة. في الصحيح الذي لا يناقض ما جاء في الكتاب والسنة.[2]

يذكر الغزالي أن الأمة مجتمعة على أن محبة الله تعالى ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض عليه كل مسلم، كما يبين أن محبة الله هي الغاية القصوى من المقاما، وكل ما قبلها مقدمة لها، وكلها بعدها ثمرة من ثمراتها. والمحبة هي أعلى مقامات العارفين وهي إثار من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم.[3]

فمحبة الله تعالى والإقلاع عن إشراك أحد مع الله بالحب الخالص مرتكز هام في عقيدة التوحيد، لأن من أحب الله مخلصا يحب غير الله ورسوله من الأهل وسواهم، ولكن يحبهم لله وفي الله. والإنسان الذي يعرف قيمة الحب الله ورسوله يتجاوز اعراض الدنيا ذا ما دعاه هذا الحب للجهاد، والتفريط بالممتلكات الدنيوية ابتغاء مرضاة الله وإطاعة أوامر النبي ﷺ. في موقف فاضل يوم الهجرة حيث اضطرب بعض المسلمين، وأضعف التعلق بأعراض الدنيا والأهل عزيمتهم على إكمال الجهاد، أتي الخطاب إلا لهي حاسما لكل من تصيبه مثل هذه

(1) الرسالة القشيرية ص: 163-166-167.

(2) الفكر الصوفي، ج2/ ص: 203.

(3) ابن تيمية والصوفية ص: -71 72.

الحال في قول الله تعالى: { قُلِ اِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اِقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اَللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِے سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّيٰ يَاتِيَ اَللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَاللَّهُ لَا يَهْدِے اِلْقَوْمَ اَلْفَٰسِقِينَ }.[1]

وعن النبي ﷺ قال: « ثلاث من كن فية وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء وأن يحب المرءلا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.»[2]

ثم إن حال المحبة لله تعالى ورسوله ﷺ إذا اقترن بمقام الزهد في الدنيا يدفع الإنسان لأن يكون مجاهدا في الله حق الجهاد، والجهاد هو الامتحان الذي يؤكد فيه الإنسان قطع علائقه بالهوى المتبع والشهوة، ويؤكد فيه إيثاره للجهاد على راحة النفس وتعلقها بالأهل والمال وغير ذلك.[3]

واعلم أن الطريق إلى تحصيل المحبة وتقويتها تطهير القلب عن شواغل الدنيا وعلائقها والتبتل، إلى الله بالذكر والفكر، ثم إخراج حب غيره الله منه، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء، وما جعل الله عز وجل من قلبين في جوف وكما الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة لغيره، فبقدر ما يشغل لغير الله ينقص منه حب الله.[4]

واعتبر ابن العريف المحبة أول أدوية الفناء في محبة الحق سبحانه، فالمحبة وجود تعظيم في القلب يمنع صاحبه من الانقياد لغير محبوبه، وهي القيام بين يديه وأنت قاعد، ومفارقة المضجع وأنت راقد، والسكوت وأنت ناطق، ومفارقة المألوف وأنت مستوطن. ومن أوصاف المحبة الستر والإخفاء وعدم بسط اللسان بالعبارة عنها، والكشف عن سرها فالمحبة الصادقة لا تظهر على المحب باللفظ وإنما تظهر بشمائله ولحظه، ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع امتزاج أسرار القلوب.[5]

(1) سورة التوبة الآية:24.
(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب رقم الحديث:16 ج/1 ص:12.
(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 134 135.
(4) الأخلاق لعبد الله شبر دقه جواد شبر دار المرتضى ودار الكتب الإسلامية بيروت، ص: 268.
(5) مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ص: 47 48-.

فالحب الإلهي ليس بحال من الأحوال وجدانية ذاتية يدعيها الفرد، وإنما هي حال وجدانية يصدقها العمل ورأسه الجهاد. والناس في الحب صنفان: مومنون متعلقون بالله تعالى، وصنف أخذ من الدنيا ما يحبونه كحب الله تعالى. وهذا السلوك يفسد عليهم دنياهم فيكونون عبيدا لما يحبونه من الأنداد والآخرة، لأن الله تعالى غاضب عليهم بسبب فعلهم هذا. وقد وصفت الآية الكريمة الصنفان: { وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّا لِّلهِۗ}[1] فالحب الإلهي شوق من العبد للقاء ربه ومرضاته، وهذا يستلزم أن يكون المؤمن أسوة حسنة برسوله ﷺ.[2]

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه أثر عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، أن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه، وهذه المحبة هي حقيقية في حق الله تعالى.[3]

وتنقسم المحبة إلى أربعة أقسام: -1 محبة التوجه والقصد المتضمن للذل والخضوع والرغبة، وهذه المحبة أصل الإيمان والتوحيد، وهي المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا الله تعالى، ومن أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره الله. 2 - المحبة في الله وتعد من المقامات العظيمة التي لا تطمئن القلوب إلا بها، وذلك لمتانة الصلة بين المحبة وبين العبودية لله تعالى لا يتحرر القلب إلا بها. 3 - المحبة مع الله كمحبة الرسول ﷺ وهي من أعظم الواجبات الإيمانية وأكبر أصوله، وأجل قواعده.-4 المحبة الطبيعية، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء ونحو ذلك.[4]

---

(1) سورة البقرة الآية:164.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحات ص: 47 48-.
(3) المستخلص في تزكية الأنفس ص:281.
(4) الفكر الصوفي ج2/ ص: 204.

والمحبة هي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون. وإليها يشخص العاملون، وعليها يتفانى المحبون فهي قوت القلوب وغداء الأرواح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لو يكونوا بدونها أبدا وَاصليها.(1)

والمحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأن يحب العبد والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه والمحبة على لسان العلماء هي الإدارة وليس مراد القوم بالمحبة الإرادة فإن الإرادة لا تتعلق بالقديم اللهم إلا أن يحمل على إرادة التقرب إليه والتعظيم له ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفا إن شاء الله تعالى فمحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه.(2)

ويذكر ابن تيمية أن دعوة الرسل تنحصر في توجيه الخلق نحو معرفة الله سبحانه، وعبادته وتأهيله ومحبته، وقد حرصوا على أن يكون سبحانه أحب إلى الناس من كل ما سواه. كما يقرر ابن تيمية ما اتفق عليه سلف الأمة وشيوخ المعرفة وعموم المسلمين وما جاء به القرآن الكريم وأقرته السنة، فالله تعالى يحب المحسنين والتوابين والمتطهرين والمتقين.

ويوافق ابن تميمة الصوفية الذين يعلنون بأنه لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة إلا الله وحده، وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث. تقول رابعة العدوية رحمة الله عليها: ما عبدت الله خوفا منه فأكون كالأمة السوداء إن خافت عملت، ولا حبا للجنة فأكون كأم السوء إن أعطيت عملت، ولكني عبدته حبا له وشوقا إليه. وتقول أيضا: إلهي إن كنت عبدتك خوف النار فأحرقني بالنار، أو طمعا في الجنة فحرمها علي، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك. (3)

ومن الأسباب الجاعلة للمحبة والموجبة لها، عشرة: -1 قراءة القرآن بالتدبر والتفهم للمعاني. -2 التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض -3 دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب -4 ايثار محابه على محابك عند غلبات الهوى. -5 مطالعة القلب لصفاته وأسمائه

(1) تهذيب مدراج السالكين ص: 509.

(2) الرسالة القشيرية ص: 110.

(3) ابن تيمية والصوفية، ص: -72 -75 76.

-6 مشاهدة بره وإحسانه وآلائه. -7 وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. -8 الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته و تلاوة كلامه. -9 مجالسة المحبين الصادقين. 10 - مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل. [1]

الفرع الرابع: الخوف

مصدر الفعل الثلاثي الأجوف «خاف وأصله خوف بكسر الواو، يخوف بفتحها مثل علم يعلم علما وإنما صارت الواو ألفا لأنهم استثقلوها فألقوها، ومعناه الفزع والذعر. وهو والخشية والرهبة بمعنى متقارب. قال القرطبي: والرهب الرهبة الخوف. والخائف من الله هو أن يخاف أن يعاقبه أما في الدنيا، وأما في الآخرة، ولهذا قيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، بل الخائف الذي يترك ما يخاف أن يعذب عليه.[2]

وقال ابن كثير في تفسيره قول الله تعالى {اِلذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ اِللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً اِلَّا اَللَّهَۖ وَكَفِيٰ بِاللَّهِ حَسِيباًۖ} [3] أي يخافونه ولا يخافون أحدا سواه.[4]

والخوف حالة تصيب المؤمن عند قراءته النصوص التي جاءت في باب الترهيب والوعيد، ولعل من دوافع نشأة حركة الزهاد، ومن ثم الصوفيين في التاريخ الإسلامي ما تدفع إليه النصوص المرهبة والمتوعدة من الخوف والخشية من عذاب اليوم الآخر لمن عصى أو ضل عن سبيل الله.[5]

والخوف على ثلاث أوجه: وقد ذكر الله تعالى الخوف وقرنه بالإيمان، قال تعالى: {فَلَا تَخَافُوهُمْۖ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّومِنِينَۖ }[6] فهذا خوف الأجلة، وقوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَٰنِ} [7] فهذا خوف الأوسط. وقال تعالى { يَخَافُونَ يَوْما تَتَقَلَّبُ فِيهِ اِلْقُلُوبُ وَالاَبْصَٰرُ}

(1) تهذيب مدراج السالكين ص: 513.
(2) الفكر الصوفي ج/ 2 ص: 186.
(3) سورة الأحزاب الآية:39.
(4) تفسير ابن كثير ج/3 ص: 473.
(5) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 140.
(6) سورة آل عمران الآية:175.
(7) سورة الرحمان الآية:45.

[1] فهذا خوف العامة.وقلوب الأصفياء لا تخلو من الخوف، فمن تلطفه عليهم وتحننه إليهم نفس عليهم شد الخناق، وحل عن أسرارهم عقد النقاط، وناداهم نداء البر والإشفاق.[2]

واعلم أن الخوف من الله تعالى مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، و الثاني الخوف منه، فأما الخوف منه هو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر.[3] قوله تعالى: { وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّه نَفْسَهُۥۗوَإِلَي ٱللَّه ٱلْمَصِيرُۖ}[4] وقوله عز وجل: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَۖ }[5] وأما الأول فهو خوف عموم الخلق، و هو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزائين على الطاعة والمعصية، وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان، وإنما تزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو من التأثير.

وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني أن أخاف الحجاب عنه ويرجو القرب منه. وهذه خشية العلماء، ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية، فإذا من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خاف بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، فمن عرف الله تعالى عرف أن يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف. [6]

والخوف سوط الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما الأقرب من الله تعالى. وهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والجوف هو الذي يكفي الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات. والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجرأة على الذنب والإفراط في الخوف يدعو إلى اليأس والقنوط. و الخوف تارة يكون لمعرفة الله تعالى، و معرفة صفاته، وأنه لو أهلك العلمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمفارقة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله، و الاستغاثة، و أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، تكون قوة خوفه.[7]

(1) سورة النور الآية:36.
(2) اللمع في التصوف ص: 60.
(3) مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ص:89.
(4) سورة آل عمران الآية:28.
(5) سورة آل عمران الآية:102.
(6) المستخلص في تزكية الأنفس ص: 293.
(7) تزكية النفوس ص:115.

ثم إن الخوف سببه معرفة الله تعالى، ولعظيم سلطانه وقدرته ولذلك فإن السالك لطريق التصوف ككل مؤمن ملتزم، كلما ازداد معرفة بالله ازداد خوفه من الله، لأن حال الخوف متولدة عن المعرفة. ومن المسلم به أن الخوف من المعاني وأنه متعلق بالمستقبل، لأنه من الواضح أن الخوف إما خشية حدوث مكروه، وإما خوف فوات شيء محبوب، وفي كلتي الحالين مرجعهما إلى شيء يمكن حدوثه في المستقبل. وحاصل الصوفي أو رأي الصوفية في الموضوع حال الخوف هو أن الخوف نتيجة علم السالك ومعرفته.[1]

أو ينقسم الخوف إلى أربعة أقسام: الأول: خوف السر، وهو أن يخاف من المقدس أن يصيب بما يشاء متى يشاء من مرض أو فقر أو موت، ونحو ذلك بقدرته ومشيئته.

الثاني: الخوف من الناس خوفا ظاهريا يؤدي إلى ترك الأقدام على فعل الواجبات الثقيلة كالجهاد، ويعرف هذا النوع من الخوف بالجبن وبالخوف الوهمي.

الثالث: الخوف من وعيد الله الذي توعد به العصاة. الرابع: الخوف الطبيعي، كالخوف من عدو يترصده أو سبع أو هدم أو غرق.[2]

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه.» وقال ذو النون: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق.» ويحكي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: «سألت ربي عز وجل أن يفتح علي باب من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يارب أعطني على قدر ما أطيق، فسكن ذلك عني».

وقال الواسطي: «الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج إلى رعوناتها.» وقال ابن المبارك: «الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب دوام المراقبة في سر والعلانية.»[3]

---

(1) تاريخ التصوف الإسلامي لقاسم غني ترجمة عن الفارسية صادق نشأت وأحمد ناجي ومحمد مصطفى حلمي مكتبة النهضة المصرية 1972 القاهرة ص: 499.

(2) الفكر الصرفي ج/2 ص: 187.

(3) الرسالة القشيرية ص:126-127-128-130.

قال أبو القاسم الحكيم: من خاف شينا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وقال الفضيل بن عياض: «إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت نعم كذبت وإن قلت لا كفرت.»

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما. فتحرق الشهوات بالخوف.

وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يفرغ لغيره.[1]

ولأهمية الخوف الذي هو حصن من الوقوع في المعاصي أو الأخطاء حث النبي ﷺ ورغب به في الحديث الشريف عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله وكان الخوف والبكاء من الصفات التي عرف بها الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، فيؤثر أن عثمان رضي الله عنه كان إذا ذكر الموت أو مر في مقبرة يبكي حتى تبتل لحيته. وكان الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز رحمهما الله، كان ممن اشتهر بالخوف والبكاء، حتى قيل عن شدة خوفهما: كأن النار لم تخلف إلا لهما.[2]

ومن فضيلة الخوف أن الله عز وجل جمع لأهل الخوف الهدى، الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، فقال تعالى: {هُدي وَرَحْمَة لِّلذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَۜ} [3]

الفرع الخامس: الرجاء

وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نصوص عديدة تؤمل الإنسان برحمة الله وعفوه وغفرانه، وهو مايبخل تحت باب الترغيب في النص القرائي إلى حد وعد الله تعالى العباد بأنه قد يغفر لم أي ذنب يقترفونه ما عدا الشرك. فلقد خاطب الله تعالى الناس في قوله العزيز: {إِنَّ أَللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُۖ وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ

(1) تزكية النفوس ص: 270.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 42.
(3) سورة الأعراف الآية:154.

فَقَدِ اِفْتَرِيٓ إِثْماً عَظِيماًۖ}[1] إذا قصر الإنسان أو وقع في خطأ قد يصيبه الهلع ويعتريه القلق، وتزداد عنده المخاوف من ذنبه وهول ما ينتظره من عذاب مقابل ما اقترفه، ولكن الإنسان لا بد وأن يتوقع الخير والرحمة من الله تعالى الذي خاطبنا بقوله:{ قُلْ يَٰعِبَادِيَ اَ۬لذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَيٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اِ۬للَّهِۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ يَغْفِرُ اُ۬لذُّنُوبَ جَمِيعاًۖ اِنَّهُۥ هُوَ اَ۬لْغَفُورُ اُ۬لرَّحِيمُۖ}[2]

فالإنسان لو عاش الخوف دون الرجاء لأصيب بتدمير نفسه، وازدياد وساوسه مما قد يشل حركته، ولكن الترغيب والوعد بغفران الله يشكل حصنا يمنع الإنسان من السقوط.[3]

واعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب، وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب، وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، والرجاء اسما من جملة الثلاثة. والرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر: أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان انتظار مع انخرام أسبابها واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره.[4]

يقول ابن العريف: «من ييأس يأس إنكاره وتكذيبه حرمه. ومن ينس يأس توفر لربه وتحقير لنفسه رزق، ومن سلك برجاء صادق إلى ممكن من الدين والدنيا أدركه ما إليه سلك».[5]

---

(1) سورة النساء الآية:47.

(2) سورة الزمر الآية:50

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 144 145-.

(4) المستخلص في تزكية الأنفس ص: 287 – 288.

(5) مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعاة ص: 175.

فالإنسان المؤمن المتم للفرائض لابد أن يدفعه إلى العمل رجاء بفضل الله ورحمته، وأمل يرضونه تعالى، وهذه الحال من الرجاء تزيد من تعلق المحب (العبد) بالمحبوب (الله) وحال المحبة كما أسلفنا هي من أفضل أحوال المؤمن.(1)

لأن الله تعالى أطلعه من سعة رحمته وفيضان كرمه وجوده ما لم يطلع عليه أحد، كما هو أعرف الخلق بصفات الجلال المقتضية للخوف، فهو أيضا أعرفهم بصفات الجمال المقتضية للرجاء، ورجاء الحمل على قدر خوفهم إذ هما كجناح الطائر.(2)

لذلك فإن كل من يتوقع الحسني في المستقبل يعتبر راجيا مؤملا. ويرى الصوفية أن عبادة الله إذا كانت متجهة بفضله وكرمه من العبادة التي تكون بسبب الخوف من العقوبة، لأن الأمل يولد المحبة.(3)

والرجاء تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها والفرق بين الرجاء بين التمني، أن التمني يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد وبعكسه صاحب الرجاء فالرجاء محمود والتمني معلول.

وتكلموا في الرجاء فقال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة.» قال يحي بن معاذ: «إلهي أحل العطايا في قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لساني ثناؤك وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك.» وروى مالك بن دينار في المنام فقيل له:» ما فعل الله بك فقال قدمت على ربي عز وجل بذنوب كثيرة محاها علي حسن ظني به تعالى.» وقال عثمان المغربي: «من حمل نفسه على الرجاء تعطل ومن حمل نفسه على الخوف قنط ولكن هذه مرة ومن هذه مرة. وقيل الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود. وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال.(4)

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 145.

(2) شرح صلاة المشيشية للطيب عبد المجيد بن كيران، تحقيق بسام محمد بارودي، طبعة المجمع الثقافي 1999 أبو ظبي ص: 128.

(3) تاريخ التصوف الإسلامي ص: 501.

(4) الرسالة القشيرية 131-132-133.

ومن المفيد أن يكون العبد دائما بين حالي الخوف والرجاء. فالخوف يردعه عن المعصية، والرجاء يدفعه إلى العمل ما يضبط سلوكه ويحصنه، ويجعله فيمن رضي عنهم الله وأحبهم. فالمؤمن يراعي قاعدة التزام بفعل المعروف والانتهاء من المنكر خوفا من النار وطمعا بجنات النعيم.

وإن المؤمنين العابدين الذاكرين هم من واظبوا على عبادة الله مما جعل جنوبهم لا تستقر على مضاجعها رغبة ورهبة، فلقد وصفهم رب العلمين في قوله تعالى: { إِنَّمَا يُومِنُ بِـَٔايَٰتِنَا أَلذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ تَتَجَافٰي جُنُوبُهُمْ عَنِ اِلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفا وَطَمَعا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ}[1]

تخلص من ذلك إلى ما جاء عند الطوسي: «قال بعضهم: الخوف والرجاء جناحا العمل لا يطير إلا بهما، وقال أبو بكر الوراق: الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم، والرجاء على ثلاثة أقسام: رجاء في الله، ورجاء في سعة رحمة الله، ورجاء في ثواب الله.[2]

إن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وقول القائل: الخوف أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل أم الجوع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب. والخوف والرجاء دواءان تداوى بها القلب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل. وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح الألفاظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فلأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدالا. لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا أن يكون ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا

(1) سورة السجدة الآية:15-16.

(2) اللمع في التصوف ص: 62.

واحدا لخشيت أن يكون أنا ذلك الرجل.» وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي.[1]

يقول أبو بكر الواسطي في أهمية اجتماع حالي الخوف والرجاء: «الخوف له ظلم يتحير صاحبه تحته يطلب أبدا المخرج منه فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج إلى مواضع الراحة فغلب عليه التمني ولا ينفع حسن النهار إلا بظلمة الليل، وفيهما صلاح الكون، فكذلك القلب مرة في ظلم الخوف أسير فإذا طرق طوارق الرجاء فهم أمير، والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض.[2]

الفرع السادس: الصبر ومجاهدة النفس ومحاسبتها

إن الله تعالى جعل الصبر جوادا لا يكبو، وصارما لا ينبو، وجندا غالبا لا يهزم، وحصنا حصينا لا يهدم، فهو والنصر أخوان شقيقان، وقد مدح الله تعالى الصابرين في كتابه، وأخبرنا بأنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، قال تعالى: { وَاصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ }.[3]

وقال أيضا عز وجل: {أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ}[4]

الصبر لغة: هو المنع والحبس،والانتظار في هدوء واطمئنان.[5]

واصطلاحا: فهو حبس النفس عن الجدع واللسان على التشكي، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، ونحوها.

وقيل هو حفف فاصل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن وما لا يجمل، وهو قوى من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها. سئل عنه الجنيد فقال: تجرع المرارة من غير تعبس. وقال ذون النون المصري: هو التباعد عن المخالفات والسكون عند

(1) المستخلص في تزكية الأنفس ص: 291.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 146.
(3) سورة الأنفال الآية:47.
(4) سورة القصص الآية:54.
(5) المعجم الوسيط ص:505.

تجرع غصص البلية، وإظهار الغني مع حلول الفقر بساحات المعيشية. وقيل الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الآداب.(1)

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له. وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاث مقامات أولها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين. وثانيها الرضا لمقدور وهذه درجة الزاهدين وثالثها: المحبة لما يصنعه به مولاه وهذه درجة الصديقين.(2)

والصبر باعتبار معلقة ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر على المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأقسام هي التي قيل فيها: لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصير عليه، والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة والنار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب.(3)

أما أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف فهو ثلاثة أقسام: أحدهما: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه المرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون. ثانيها: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى. ثالثها: أن يكون الحرب سجالا بين الجنديين فتارة له اليد وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين.(4)

ومراتب الصبر ثلاث: صبر بالله، وصبر مع الله. فالأول الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصَبر، وأن صبر بربه لا بنفسه. والثاني الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر

(1) تزكية النفوس ص: 84.

(2) المستخلص في تزكية الأنفس ص: 307 - 310.

(3) تزكية النفوس ص: 87.

(4) المستخلص في تزكية الأنفس، ص: 309.

محبة الله، وإرادة وجهه، فالتقرب إليه لا إظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من الأعراض. والثالث الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرا نفسه معها، سائرا بسيرها. مقيما بإقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركابها، وينزل معها أين استقلت مضاربها. فهذا منى كونه صابرا مع الله أي جعل نفسه وقفا على أو أمر ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها. وهو صبر الصديقين.(1)

كما أوجب الله تعالى الصبر على البلاء لأن للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل. فلا بد للمبتلي من الصبر إلى أن يقضي أوان البلاء، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل، كما أن المادة إذا انحدرت من عضو فإنها لا ترجع، فلا بد من الصبر إلى حين البطالة. فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعا ولا ينفع إلا به، إلا أنه لا ينبغي للداعي أن يستعجل بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم.(2)

وفي رأي ابن تيمية أن الصبر أنواع عديدة أهمها: الصبر على المعاصي والشهوات والهوى مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة، وهو أعظم أنواع الصبر وهو صبر المتقين، والصبر على الأذى والمصائب وهو الصبر من جنس الجهاد في سبيل الله. والصبر يكون على فعل الأمور الحسنة وترك الأمور القبيحة، ويكون على المكاره ولأذى والبلايا وجور الحكام وظلمهم، كما يكون عن البطر عند النعم. وهذه الآراء تتفق مع ما رأه الصوفية من أن الصبر على ثلاثة معان: صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر في المصائب.(3)

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.» وقال ابن عطاء: «الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب وقيل هو الفناء في البلوي بلا ظهور شكوى.» وأنشد قائلا:

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة   وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

(1) تهذيب مدراج السالكين ص 354.

(2) صيد الخاطر ص: 121.

(3) ابن تيمية والصوفية ص: 64.

وقال ابو عثمان الصبار: «الذي عود نفسه الهجوم على المكاره وقبل الصبر المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية.» وقال عمرو بن عثمان: « الصبر هو الثياب مع الله تعالى وتلقي بلائه بالرحب والدعة. وقال الخواص الصبر اثابت على أحكام الكتاب والسنة.[1]

أما حلاوة الصبر فليس هناك وجود شيء أصعب من الصبر إلى على المحبوب او على المكروهات. وخصوصا إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج. وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد يتنوع من أجناس. فمنه تلمح مقدار البلاء وقد يكون أكثر. ومنه أنه في حال فوقها أعظم منها مثل أن يبتلي بفقد ولد وعنده أعز منه ومن ذلك رجاء العوض في الدنيا، ومنه تلمح الأجر في الآخرة. فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشتغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل.[2]

فالصبر وإن كان شاقا أو ممتعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركيب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم أخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها.[3]

وليس في التكلف أصعب من الصبر على القضاء ولا فيه أفضل من الرضا به. فأمل الصبر: فهو فرد، وأما الرضا فهو فضل. وإنما صعب الصبر لأن القدر يجري في الأغلب بمكروه النفس، وليس مكروه النفس يقف على المرضى والأذى في البدن بل هو يتنوع حتى يتحير العقل في حكمة جريان القدر.[4]

أما محاسبة النفس ومجاهدتها فهي من الأعجب، لأنها تحتاج على صناعة عجيبة فأن أقواما أطلقوها فيما تحب فأوقعتهم فيها كرهوا، وإن أقواما بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها. وأثر ظلمهم لها تعبداتهم فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك عف بدنها عن إقامة واجبها ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس وألت إلى ترك فرض

(1) الرسالة القشيرية ص: 181 – 182.

(2) صيد الخاطر ص:22.

(3) المستخلص في تزكية الأنفس ص 316.

(4) صيد الخاطر ص: 72.

وأفضل من عياذ مريض، أو بر والدة. وإنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الأصول. فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فان لا ينبسط إليه الغلام، فان انبسط ذكر هيبة الملكة. فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها.(1)

ومجاهدة النفس ومحاسبتها تارة تكر عليه فتظفر به، وتارة يكر عليها فتظفر بها وفي هذا المعنى قال الشيخ المجذوب:

شايس من النفس جهدك وصبح وميسي عليها
لعلها تدخل بيدك فتعود تصطاد بها(2)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في أخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها وذلك عرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وتحققوا لا ينجهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابها و حضر عند السؤال جوابه و حسن مقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والموقت سيئاته، فلم انكسف له ذلك علموا أنه لا ينجيه منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فرابطوا أنفسكم أولا بالمشارطة، ثم بالمراقبة ثم المحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة.(3)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا.» قال مالك بن دينار: « رحم الله عبدا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا ثم ذمها، ثم خاطبها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائدا» فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها من حركتها وسكناتها و خطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة يمكن أن يشتري بها كنزا

(1) صيد الخاطر 111.
(2) إيقاظ الهمم ص 410-411.
(3) المستخلص في تزكية الأنفس ص 122 - 128.

من الكنوز لا يتناهى من نعيمها أبدا الأباد. ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده. أما النوع الأول: فهو ان لايقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى لا يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبدا وقف عند همه، فان كان الله أعطاه وان كان لغيره تأخر.» فشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس العمل من الأعمال، وهم به العبد، وقف أولا ونظر، هل ذلك العمل مقدور عليه، أو غير مقدور ولا مستطاع، فان لم يكن مقدورا لم يقدر عليه، وان كان مقدورا عليه وقف وقفة أخرى، ونظر هل فعل خير له من تركه، أم تركه خير له من فعله. والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع: 1 - محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى توقعا على الوجه الذي ينبغي.

2 - أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

3 - أن يحاسب نفسه على أمر مباح لم يفعله، وهل أراد به الله تعالى والدار الآخرة فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.[1]

فمجاهدة النفس هي وسيلة الهداية القلبية إلي الله ورضوانه، والهداية هي مقدمة التقوى قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [2] فالتسلسل إذا على الشكل التالي: مجاهدة توصل الى الهداية، وهداية توصل الي التقوى، وكل ذلك لا يتم إلا بتوفيق الله ومعونته وعطائه. ومن هنا ندرك نقطة البداية الصحيحة في السير إلى الله هي المجاهدة ومحاسبة النفس.[3]

---

(1) تزكية النفوس ص 77-78.

(2) سورة محمد الآية:18.

(3) تربيتنا الروحية ص 119.

الفصل الرابع: الصوفية في فكر البوطي

المبحث الأول: مفهوم الصوفية

المطلب الأول: لغة

تعددت المواقف عند مؤرخي الفكر الإسلامي في حقيقة المصدر الذي اشتقت منه كلمة صوفية، وتصوف، فعزوا التسمية إلى مصادر أربعة: هي الصفة، والصوفة، والصوف والصفاء.

1 - الصفة: وهي فناء ملحق بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة. وسبب إشتهارها هو إنتساب بعض المسلمين في عصر النبي ﷺ إليها عرفوا بأهل الصفة. وهؤلاء جماعة فقراء أخرجوا من ديارهم لا مال لهم، ولا منازل، ولا عائلات، أذن لهم النبي ﷺ أن يقيموا في ظلال مسجده منقطعين إلى العبادة وللجهاد في سبيل الله باللسان والسيف، وقد امتاز أهل الصفة بالزهد والإعراض من الدنيا، و مما جاء في القرآن الكريم عنهم وعن أمثالهم قوله تعالى: {وَلَا تَطْرُدِ اِلذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ} [1] وأهل الصفة كانوا يكثرون ويقلون فلم يكونوا قوما بعينهم، بل كل قاصد للمدينة لا مأوى له من المسلمين كان يقيم في الصفة، ولكن بعضهم كان يقيم بشكل ثابت منهم:

أبو ذر الغفاري، أبو موسى الأشعري، سلمان الفارسي وغيرهم. ووصل عدد أهل الصفة في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة، وربما أربعمائة أحيانا. أما عن اشتقاق المصطلح فإنه النسبة إلى صفة: صفي، وليس صوفي، ولكن مع ذلك لا يمكن إلغاء أثر سلوك أهل الصفة وزهدهم في تحديد منهاج الحياة عند الصوفية في عصور لاحقة، بلا ربما كانت حياتهم القائمة على الجهاد والزهد نموذجا يحتذى عند من أتى بعدهم.[2]

2 - الصوفة: جاء في لسان العرب، الصوفة كل من ولي شيئا من عمل البيت الحرام قبل الإسلام، وهم الصوفانية. [3]

---

(1) سورة الأنعام الآية:53.

(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 15-16-17.

(3) لسان العرب لابن منظور مادة صوف ج/2 ص: 495.

أما الصوفية الذي قيل إن الصوفي نسب إليه، فهو اسم رجل كان انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام، وهو الغوث بن مر بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر، فكان يقوم بخدمة الكعبة في الجاهلية، ويجيز الحاج، أي يفيض بهم. ويقال في الحج: أجيزي صوفة، فإذا أجازت قبل أجيزي خندق، فإذا أجازت أذن للناس كلهم بالإجازة، وهي الإفاضة وفيهم يقول أوس بن مغلاء السعدي:

ولا يريمون في الريف موقفهم — حتى قال: أجيزوا آل صوفانا [1]

فانتسب الصوفية إلى الغوث بن مر، لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله تعالى وليس ما يمنع أن يكون التصوف عرف في الجاهلية باسمه ورسمه، ثم كانت له رجعة في الإسلام.[2]

3 - الصوف: يميل غير واحد إلى إرجاع التسمية إلى المظهر، وهو ليس الصوف الذي اعتمده عدد كبير من الزهاد قياسا على تسمية حواريين اشتقاقا من لبس الثياب البيضاء. وقد يكتفي الصوفي بلبس المرقعة من الصوف وليس كامل الثوب، بأن يأخذ رقعة يلف بها عمامته، وكانت كل طريقة صوفية تعتمد لونا معينا في موقعتها يميزها عن سواها. ومع أن الاشتقاق من صوف الصوفي» سليم لغويا إلا أن ارتداء الصوف ليس قاعدة عند كل الصوفيين حيث نرى بعضهم كان يعد ذلك ادعاء مستندا على المظهر، والأولى بالصوفي صقل الباطن وإهمال الظاهر.[3]

اللباس الصوف كان غالب على المتقدمين من سلف الصوفية، لأنه اقترب إلي التواضع والزهد والقاسم السلاسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد جاء أن الرسول ﷺ كان يركب الحمار ويلبس الصوف.[4]

لكن هذا لا يمنع الجانب الرمزي في لبس الصوف في جهة اعتماد خشن الملبس عدم الاهتمام الستار عند الصوفيين، واعتبار الصوف رمزا للخشونة، وليس بالضرورة لبس الصوف بعينه. والصوف قديما كان مظهر التخشن والتقشف، قد وصفه ابن أدهم بإنه

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 17.

(2) التصوف الإسلامي لزكي مبارك الطبعة:1 المكتبة العصرة بيروت ج/ 1 ص: 41.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص:18.

(4) مجلة المعرفة مقال المستر مرجوليت السنة الأولى ص: 782.

حمل جلده على ضعفه خشونة الصوف فلبس الصوف هنا، علامة الذل وسوء الحال، وقول أبي فراس يخاطب سيف الدولة بن حمدان:

يا ناعم الثوب كيف تبذله ثيابنا الشوف ما نبالها

4 - الصفاء: يرغب أغلب الصوفيين رد اشتقاق التسمية، ونسبتها إلى صفاء القلوب ونقاء أسرارها. ورغم أن الاشتقاق اللغوي من صفاء ليس « صوفي « إلا أن الصوفيين ربطوا التصوف بصفاء القلب والنفس لأن صفاء القلب لذكر الله تعالى هو سمو روحي عمل النبي ﷺ على تعزيز في قلوب أصحابه، فالصفاء يدلل على اليقين. والصفاء يؤدي إلى الصف فمن صفت قلوبهم لله تعالى يكرمهم ويصطفيهم فيصبحون في الأول عندما يقدمهم على سواهم. ومن هنا الملاحظ عدم سلامة الاشتقاق اللغوي من صفاء وصف، فالنسبة من وصف هي صفي. ومن صفاء: صفاوي ولكن اعتماد الصوفية على صفاء القلب الذي يعقبه الاصطفاء غير بعيد لأن المنهج الصوفي ليس ماديا ولا عقلانيا بحتا، وإنما يأخذ منها مع تركيزه على القلب والروحانية فالتصوف منهج روحي وجداني يقوم على مجاهدة النفس للأهواء، وعلى تذوق حلاوة البعد الروحي في العبادة.(1)

ومنهم من نسبها إلى سوفيا اليونانية وهذا ليس إلا ضربا من الإغراب. فكلمة سوفيا اليونانية معناها الحكمة، ومنها الفيلسوف: أي محب الحكمة، وكانت الفلسفة عند اليونانيين القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء، وقد ترجمها العرب فسموا الطب الحكمة، فهم عرفوا من سوفيا الفلسفة والطب. أما الحكمة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا لمحوا لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان. على أنه ما الذي يمنع من أتكون سوفيا بمعنى الحكمة الروحانية جاءت من كلمة صوف، وهي قديمة في العربية أن التصوف قديما جدا عند العرب، وهو أساس المسيحية، وليس الصوف كان علامة التقشف، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة صوف إلى معابد اليونان.(2)

المطلب الثاني: اصطلاحا

لا يستطيع الباحث في تاريخ الصوفية أن يظفر بتعريف جامع مانع للتصوف، والتعريف عند كثير منهم لا ينفصل عن اشتقاق التسمية، فالأمران متداخلان. تحمل لنا المصادر أن

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص:18.

(2) التصوف الإسلامي لزكي مبارك. ج/ 1 ص: 42.

كلمة صوفي أطلقت لقبا لأول مرة في التاريخ الإسلامي في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة على أبي هاشم الزاهد البغدادي، وعلى الكيميائي الشهير جابر بن حيان الكوفي. وقبل هذا التاريخ كانت تستخدم صفة زاهد لمن لقبوا فيما بعد الصوفية. والتعليل لذلك عند بعضهم أن الزهد، و عدم التعلق بالدنيا، والسعي لتزكية النفس مع عدم المبالغة بمطالب البدن، كان سلوكا شبه عام عند الصحابة والتابعين، ولكن مع توسع الفتوحات مال بعض المسلمين إلى الدنيا فأخذت منهم كل مأخذ مما حدا بالزهاد أن يميزوا أنفسهم عن سائر الأمة بتسمية خاصة النبي الصوفية.[1]

بعد هذا التاريخ أخذت التسمية تتبلور سلوكا خاصا يطمح فيه صاحبه إلى الظفر بقلب «ولي»، ولذا كان في التصوف ثمة اهتمام بالنوافل في العبادات سعيا للحصول على مرتبة القرب من الله تعالى. والسلوك الصوفي يقوم على فريضة مفادها أن الإنسان مركب من عالمين: عالم الجسم وعالم الروح. وهذا البدن الكثيف أي الجسم ينتمي إلى عالمنا هذا... أما الروح فلا تنتمي إلى هذا العالم ولا تمت إليه بسبب، هي غريبة عن هذا العالم المادي... فليس الطريق الصوفي بما فيه من رياضات ومجاهدات إلا لكسر كثافة هذا الجسم وخلخلة قضبان هذا الجسم لكي تنطلق الروح إلى ملكوتها.[2]

والتصوف كل عاطفة صادقة متينة الأواصر، قوية الأصول، لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب. وهذا التعريف، قريب من قول أبي علي الروزباري: التصوف الإنافة على باب الحبيب، وإن مرد عنه. والتصوف خليق بأن يعجب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص، بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به واطمأنت إليه، في عالم المعاني، وكذلك يتمثل التصوف في صور كثيرة: فيكون في الحب، ويكون في السياسة، حين يقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان. والتصوف ليس وقفا على أولئك الدراويش الذين يعيشون حيث التسول، ويتخذون شمائل الزهاد، صادقين أو كاذبين إنما التصوف نزعة روحية، يحسها الأغنياء كما يحسها الفقراء، ويدركها الفاخر، كما يدركها العفيف، وكم لفتة من لفات الصدق، تقع من رجل معروف بالطيش هي

(1) التصوف مشوه ومصطلحات ص: 21.

(2) محاضرات في الفلسفة الإسلامية لخليف فتح الله الطبعة:1 مكتبة كريدية سنة:1975 بيروت ص:7.

أقرب إلى التصوف والروحانية، من أعمال كثير من المرائين الذين يلبسون مسموح الرهبان، ويضمرون غرائز اللئام.[1]

وكما قلت لا يكاد التصوف يصل إلى تعريف جامع مانع، وقد أدرك هذه الحقيقة المتصوفة أنفسهم ومن الطريق يرجعون ذلك إلى عظمة قدر التصوف والصوفية، حيث إن التصوف كما يحلله هؤلاء أغواره ولا تبلغ أبعاده، إذا هو مادة جميع العلوم والفنون، فيفوق الحدود والضوابط، ولا يقدر أحد أن يجمع كل جوانبه في ألفاظ قليلة حاصره، بل غاية أمر المتعرض لتصريفه وحده أن يعبر عما أدركه هو التصوف، وما رآه من مقامات الرجال وأحوالهم، فكل يعبر عن حاله وذوقه ومشاهدته التي يزعمها.[2]

إننا لو أردنا أن نسوق كل ما قاله الصوفية في تعريف التصوف لطال بنا المقام، والفائدة من ذلك قليلة، وذلك للاختلاف الكثير. وهذه جملة من بعض تعريفات الصوفية:

يقول أبو الحسن النوري (ت 295هـ): «التصوف ترك كل حظ النفس.» وقال الجنيد: «أن تكون مع الله بلا الناس السنة.» ويقول أبو الفيض المنوفي: «فالصوفي أو بعبارة أخرى السالك طريق الله، هو المقتحم ميدان التصوف الانسانية الوصول إلى حقيقة مطلقة، فلن يكون إلا رجلا ذا ذوق ووجدان.[3]

يقول ابن خلدون عن التصوف: «هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء الفرد لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها الكون على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة بر السلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.[4]

(1) التصوف الإسلامي ج/1 ص:15-16.
(2) الفكر الصوفي ج/1 ص:42.
(3) نفسه ج/ 1 ص: 43.
(4) مقدمة ابن خلدون تحقيق علي عبد الواحد وافي. طبعة لجنة البيان العربي 1960م القاهرة. ج/3 ص: 1063.

يقول المنوفي: «حقيقة التصوف أن تغني حالك عن مقامك، وأن تكون مع الله بلا كون في حالتي صحتك واعتدالك، وأن تدع الاعتماد على كل ما سوى الله جملة وتفصيلا، وأن تعكف على ذكره بكرة وأصيلا.»

ويضيق قائلا: «الصوفية هم المجتمعة على الله هممهم، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم، الذين لا يشهد سوى الله أسرارهم، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم، فهم أحكم الناس وأعقلهم.»[1]

وأساس الشخصية الصوفية القناعة بالضروري من متطلبات البدن، عن هذا المفهوم قال الطوسي عن السلوك الصوفي: «بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم ترك ما لا يعنيهم وقطع كل علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم إذ ليس الهم مطلوب ولا مقصود غير الله تعالى، ثم لهم آداب وأحوال شتى فمن ذلك القناعة بقليل الدنيا عم كثيرها والاكتفاء بالقوت الذي لا بد منه والاقتصار على ما لا بد منه من مهنة الدنيا من الملبوس والمفروش والمأكول وغير ذلك.»[2]

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «علمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله. وكان العلم أيسر علي من العمل.... فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.»[3]

المبحث الثاني: تاريخ التصوف وعلاقته بالفقه ومنطلقاته

المطلب الأول: نشأته ومصادره

لا يختلف الباحثون على أن التصوف نشأ أساسا عن ذلك الزهد الذي اتصف به النبي ﷺ، والعدد الأكبر من الصحابة والتابعين. وكانت حالة الزهد هذه أمرا طبيعي الحدوث

(1) المدخل إلى التصوف لمحمود أبو الفيض المنوفي. الدار القومية القاهرة بدون رقم طبعة ولا تاريخ. ص: 9.
(2) اللمع في التصوف للطوسي ص: 11.
(3) المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي قدم له فريد جبر. الطبعة: 2 المكتبة الشرقية بيروت 1969 ص: 35.

بفعل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تحمل معاني التشجيع للمؤمن على العمل من أجل الآخرة، ومحاولة الإقلاع عن الانغماس في عرض الدنيا الزائل، مع المطالبة بتزكية النفس، والتوكل على الله، والخوف منه تعالى، والرجاء الدائم برحمة الله وغفرانه. قال الله تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}[1] وإذا كانت قد اختلفت الآراء وتعددت حول الاشتقاق لكلمة صوفي - كما سبق - إلا أن معالم الطريق الصوفي في أصلها ناشئة من الإسلام و تعاليمه.

إذا كان اسم التصوف لم يظهر في الاستخدام قبل النص الثاني من القرن الثاني للهجرة، إلا أن هذا لا يعني أنه من نشأة غير إسلامية بل يمكن تصنيفه على أنه ثمرة ذلك الزهد الذي انتشر بفضل الروح الإسلامية التي عرضنا بإيجاز بعض معالمها، لذلك لابد من الاعتراف بأن التصوف نشأ من داخل الإسلام نفسه منهجا ومفاهيما يوجد لها نصوص عديدة في القرآن والسنة يضاف إلى ذلك أن الواقع الاجتماعي والسياسي، بعد توسيع الفتوحات الإسلامية، قد ساهم في نشأة مدارس التصوف على أيدي من أرادوا تمييز أنفسهم عن معاصيهم ممن مالوا إلى التنعم والرخاء في العيش.[2]

يقول الدكتور عبد الرحمان بدوي: «إنه إلى جانب الأصول الإسلامية العقائد (القرآن والحديث) أثر في ايجاد النزعات الصوفية عوامل اجتماعية أو فردية، من أزمات سياسية، أو أزمات نفسية ».[3]

والمستشرق نيكولسون الذي صرف بعض نشاطاته لدراسة التصوف لم يخالف هذا الرأي عندما قال: «لا ترى أنا في أقوال التصوف أو المتصوفة الزهاد، من أمثال إبراهيم بن أدهم (ت 161ه) وداود الطائي (ت 165ه) والفضيل بن عياض (ت 187ه) ما يدل على أنهم تأثروا بالمسيحية أو بأي مصدر أجنبي أخر، وبعبارة أخرى يبدو لما أن هذا النوع من التصوف

(1) سورة الشورى الآية:18.

(2) التصوف منشوه ومصطلحاته. ص: 44.

(3) تاريخ التصوف الإسلامي لعبد الرحمان بدوي الطبعة:1 وكالة المطبوعات الكويت 1975 ص: 48.

كان - أو الأقل من المحتمل أنه كان - وليدا لحركة الإسلام ذاته، وأنه كان نتيجة لازمة لفكرة الإسلام عن الله.»[1]

لكن التصوف الذي نشأ نشأة إسلامية في البداية كانت حاله كحال غيره من العلوم، حيث لم يسلم مع الزمن من تأثير فلسفي وديني غير إسلامي.[2]

فالتصوف الإسلامي مبني في أساسه على الإسلام، ولا تستطيع أن نفهمه حقا ما لم نفهم التطور الذي سلكه الدين الإسلامي في انتشاره وتقلب الأحوال به. ولكن بما أن الحركات لا تكون أبدا خالصة من المؤثرات الأجنبية فإن التصوف في الإسلام لم يكن كذلك خالصا من عناصر غريبة عنه. إن تلك العناصر لم تدع إليها حاجة العرب إلى ما عند غيرهم، بل اقتضي وجودها في التصوف الإسلامي أن كثير من المتصوفين كانوا غير عرب فحملوا معهم إلى الإسلام تخيلات غريبة ورياضيات شاذة واعتقادات متفرقة دخل أكثرهم فيما بعد في التصوف الإسلامي.[3]

والتصوف ظاهرة إسلامية نبتت في جو الإسلام وبينته، وتأثرت أساسا بفعل النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، واعتمد على ما جاء في الكتاب والسنة من حكمة وموعظة، وشاركت المدارس الإسلامية الكبرى في بعض ما عرضت من مشاكل. ولكنها كالظواهر الإسلامية الأخرى لم تسلم مما سوى إلى العالم العربي من عوامل خارجية، وكان لا بدلها أن تتأثر بها وتأخذ عنها.[4]

قبل أن تتعرض للمؤثرات الأجنبية الدخيلة في التصوف والتي كان لها أثر سلبي عليه، لا بد من التوفيق عند عامل فرضته الأحوال السياسية والاجتماعية، حيث رفض أتقياء المسلمين الانغماس في الدنيا والجنوح إليها فكان من نتيجة ذلك أن قامت عند الزهاد والمتصوفة ثورة داخلية هي نزاع بين نفس لا تزال على إيمان غض قوي، ودنيا مقبلة عليهم

---

(1) في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكولسن رينولد ألن. ترجمة العلا غفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1969م القاهرة. ص: 3.

(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص: 45.

(3) التصرف في الإسلام لعمر فروخ. طبعة دار الكتاب العربي بيروت 1981م ص: 29.

(4) في الفلسفة الإسلامية لمدكور إبراهيم. ط. دار المعارف. 1983 مصر.ج/2. ص: 134.

بشهواتها ومباهجها، وكان الطريق الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو الفرار من الحياة وما فيها من لذات، ورياضة النفس على الطاعات والمجاهدات.[1]

لكن الثورة عند الصوفية و الزاد على النظام الاجتماعي وما انتشر فيه من فساد، وعلى النظام السياسي وما شاع من ظلم وتسلط، لم تكن فعلا إيجابيا في إطار الإصلاح والعمل على تغيير الواقع إلى ما هو أفضل، وتشريع سيف الجهاد في وجه السلطان الجائر، بل كانت ثورة ذاتية لا تتجاوز الحالة الوجدانية لصاحبها مما يحملنا على القول: إن ما قام به الصوفيون هو الهروب، وعمل سلبي لم يؤت ثمارا تذكر في إصلاح الشأن العام. هذه السلبيات في المواجهة تضاف إليها سلبية تقل مفاهيم من ديانات وفلسفات أجنبية كان لها أسوأ الأثر على كثير من حلقات الصوفية مما أوصل بعضها إلى شطحات وهرطقات ليست من الإسلام في شي.[2]

ثم إنه مع تطور التصوف والاتصال بالأفكار الأجنبية انضافت إلى التصوف الأول قسمات من أصول أجنبية كانت بمثابة زخارف وتنويعات.[3]

دفع هذا التطور في سلوك الصوفيين مؤرخي الفكر الإسلامي إلى القول: الصوفية حركة بدأت زهدا وورعا ثم تطورت فأصبحت نظاما شديدا في العبادة، ثم استقرت اتجاهات نفسيا وعقليا بعيدا عن مجراها الأول، وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة.[4]

فالمؤثرات الدخيلة في الطرق الصوفية أتت من مصادر متعددة منها:

1 - التأثير الهندي: إن التنوع الاجتماعي، مضافا إليه تقلب الأحوال السياسية حمل الهنود في مختلف فرقهم على الميل إلى الحياة التقشف والزهد، وإلى احتقار اللذات الجسدية مما جعلهم يتوافقون مع بعض أنماط السلوك الصوفي. إن أبرز ما عندهم في هذا المجال يقوم على اعتقادهم بالتناسخ، وعما تعاينه النفس العاقلة عند انتقالها من بدن إلى آخر، ولذلك يجب على الإنسان أن يطهر نفسه من دنس البدن حتى يرقى في الكمال، وصولا إلى

(1) التصوف الثروة الروحية في الإسلام لأبي العلا عفيفي طبعة دار المعارف القاهرة. 1963 ص: 71.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 47.
(3) تاريخ التصوف الإسلامي بدوي عبد الرحمان. ص: 48.
(4) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 47.

الانفصال للروح عن الأبدان واتحادها مع بالروح الكلية للعالم بما سموه: النرفانا. لذلك كانت وما تزال رياضة اليوجا التي تقوم على تعذيب البدن وقهره، أحد أهم الطقوس الدينية الهندية، من أنواع الطقوس في محاربة كل زينة في الحياة الدنيا أفعال الأكنواطرية عباد النار.[1]

يقول عنهم الشهرستاني: « وإنما عبادتهم لها النار أن يحفروا أخدود مربعا في الأرض، ويؤججوا النار فيه، ثم لا يدعون طعاما لذيذا، ولا شرابا لطيفا، ولا ثوبا فاخرا، ولا عطرا فائحا، ولا جوهرا نقيا إلا طرحوه فيها تقربا إليها، ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين يسدون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس الصدر عن صدر محرم. وسنتهم: الحث على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها، وهي الكذب، والحسد والحقد، واللجاج، والبغي، والحرص والبطر ».[2]

2 - التأثير اليوناني: نقل العرب معظم فلسفة اليونان، وبشكل خاص كتب أفلاطون وأرسطو ولم يخل التصوف من بعض طروحات هذين الفيلسوفين، ومن ذلك مذهب أفلاطون في النفس. كان أفلاطون يقول بأن للنفس حياة سابقة على حياة البدن، حيث أنها كانت تعيش في عالم المثل المنزه عن الحس، وبعد ذلك عوقبت عندما حلت في بدن مركب من طبيعة عالمنا الأرض الذي يقول فيه أفلاطون بأنه ظل لعالم المثل. والنفس تبقى في صراع مع البدن ومتطلباته، وكان له في ذلك عبارة شهيرة يقول فيها: البدن سجن النفس. والإنسان الحكيم الفاضل هو من استطاع تخليص نفسه في الحياة الدنيا من قيود هذا السجن بقهر الشهوات، وتحكيم العقل والإرادة، مما يؤدي إلى نظام قاس من الزهد والتقشف، مع العالم أن الخلاص النائي للنفس لا يكون إلا بالموت حيث تعود من جديد إلى عالم المثل. فمحاولة تزكية النفس ونصرتها في صراعها مع البدن بالزهد وفق المذهب الأفلاطوني، هي مما يقارب إلى حد بعي ذلك التركيز عند الصوفيين على النفس وإهمال البدن، لأن انتصار النفس سبيل إلى الفضيلة، اتباع البدن وشهواته طريق إلى الرذيلة.[3]

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:48.

(2) الملل والنحل لشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة 1982م بيروت ج/2. ص: 262.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص 49 - 50.

أما الأثر الثاني فهو من أرسطو طاليس في مفهومه لطبيعة الخالق واجب الوجود وعلاقته بالمخلوقات. وهو يسمى الخالق واجب الوجود فيقول: إنه واحد ويعقل ذاته ثم من ذاته يعقل كل شيء، ولكنه لا يعقلها على أنها أمور خارجة عنه فيكون تعلقه من جنس تعلقنا للمحسوسات بل يعلقها على أنها من ذاته يقول أرسطو عن إمكان معرفة الواجب الوجود والاتصال به: «اللذة في المحسوسات هو الشعور بالملائم، وفي المعقولات الشعور بالكمال الواصل إليه من حيث يشعر به. فالأول مغتبط بذاته، متلذذ بها، لأنه يعقل ذاته على كمال حقيقتها وشرفها وإن جل عن أن ينسب إليه لذة انفعالية، بل يجب أن يسمى ذلك بهجة، وعلاء، وبهاء. كيف ونحن نلتذ بإدراك الحق، ونحن مصروفون عنه، مردودون في قضاء حاجات خارجة عما يناسب حقيقتنا التي بها ناس، وذلك لضعف عقولنا، وقصورنا في المعقولات، وانغماسنا في الطبيعة البدنية، لكنا نتوصل على سبيل الاختلاس فيظهر لنا اتصال بالحق الأول، فيكون كسعادة عجيبة في زمان قليل جدا، وهذه الحال له أبدا، وهو لنا غير ممكن لأننا مذنبون، ولا يمكننا أن نشم تلك البارقة الإلهية إلا خطفة وخلسة.[1]

إن البهجة تكون بالمعرفة المجردة عن المحسوسات التي يحقق فيها العبد الاتصال مع الخالق واجب الوجود، وهذه لا تكون للإنسان إلا قليلا، وهذا ما يلتقي فيه أرسطو مع الصوفيين في الموضوع إمكان الاتصال مع الله تعالى، وبما عرف يشرح الصدر بواسطة نور يقدفه الله في الصدر. ثم سعادة الأنفس تتحقق بمقدار تخلصها من علائق البدن، واستكمالها بواسطة الإدراك الفعلي المجرد عن المحسوسات.[2]

يقول أرسطو: «إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإله سبحانه وتعالى، ووصلت إلى كماله، وإنما هذه التشبه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستعداد، وإما بحسب الاجتهاد. فإذا فارق البدن اتصل بالزوجة وانخرط في سلك الملائكة المقربين، ويتم له الالتذاذ والابتهاج ».[3]

والعالم الرياضي اليوناني فيثاغرس كان له رأي في النفس وتزكيتها بالمجاهدة كما أنه عاش حياة خلوة واعتزال مع تلامذته سعيا لتخليص النفس من آثار العالم الخارجي المحيط

(1) الملل والنحل للشهر ستاني. ج/2. ص: 125.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص: 51.
(3) الملل والنحل ج/2 ص: 134.

بها فبالتعقل ذكر فيثاغورس أن الإنسان بحكم الفطرة واقع في مقابلة العالم كله، وهو عالم صغير، والعلم إنسان كبير، و لذلك صار حظه من النفس و العقل أو فر، فمن أحسن تقويم نفسه و تهذيب أخلاقه و تزكية أحواله أمكنه أن يصل إلى معرفة العلم وكيفية تأليف، ومن وضع نفسه ولم يقم بمصالحها من تهذيب والتقويم وخرج من عداد العدد والمعدود، وانحل عن رباط القدر والمقدور، وصار ضياعا هملا.[1]

بهذا نلاحظ أن فلاسفة اليونان قد ركزوا على النفس وترقيتها وتزكيتها بالمعرفة والادراك الفعلية والتهذيب.

3 - التأثير المسيحي: يأتي في مقدمة المؤثرات المسيحية في التصوف الإسلامي نظام الرهبنة الذي نشأ عند المسيحيين، خاصة بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له والصراعات بين المدارس اللاهوتية وبين الكنائس، ونظام الرهبنة هذا كما نعلم يقوم على احتقار البدن وهجر الدنيا، واعتزال الناس في الأديرة، والأبنية المقامة في مناطق نائية، والامتناع عن الزواج، والرضا بالقليل من نصيب الإنسان في الدنيا من لباس وطعام.[2]

وهذه الرهبانية كما نصت آيات القرآن هي بدعة وطريق لأكل أموال الناس بالباطل بمجرد الامتناع عن الكسب. يقول عز وجل: {وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا اَبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ اِللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ}[3] وقال أيضا تعالى: {۞يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرا مِّنَ اَلَاحْبِارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاكُلُونَ أَمْوَٰلَ اَلنَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اِللَّهِۖ}[4] لكننا مع ذلك نجد تشابها كبيرا بين نظام التصوف عند البعض الطرق مع نظام الرهبنة، لجنة تعذيب البدن، والامتناع عن الزواج واعتزال الناس وغير ذلك. أما المسألة الثانية فهي ما عرف بالحلولية. ففي المفهوم المسيحي لطبيعة المسيح عليه السلام تتمحور المواقف حول وجهين لشخصية المسيح هما اللاهوت الذي حل في الناسوت. فالمسيح وفق مفهوم أوريجنس - وهو فيلسوف مسيحي - هو كلمة وعقل حل في عيسى الإنسان. وبهذا المعنى يكون المسيح قد بدا وظهر أو تجلى في شخص عيسى، وفكرة الحلول هذه تفيد أن عيسى إنسان إلهي، صورته الخارجية

---

(1) الملل والنحل ج /2. ص: 79 80-.

(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:53.

(3) سورة الحديد الآية:26.

(4) سورة التوبة الآية:34.

صورة إنسان، وطبيعته الداخلية مما ينتمي للإله، فهو من طبيعيتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة، إنه مركب من الناسوت واللاهوت كما يزعمون.(1)

تتضح هذه الحلول عند كثير من المتصوفين المتأخرين مما حمل علماء المسلمين على استجابة دمهم ورميهم بالكفر، من هؤلاء مثلا الحسين بن منصور الحلاج الذي نقل له شعر يظهر أخذه بمذهب الحلول المخالف للإسلام، ويقول في أبيات له:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لا هوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرا ... في صورة الأكل والشراب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاج (2)

إن هذا الحلول اللاهوت في الناسوت له في فلسفة أرسطو طاليس، الذي يتحدث عن اتحاد الصورة بالمادة ويفسر الموجودات على هذا الأساس. وفي المسيحية أن الجوهر الروحي اتحد بالمادة وحل فيها ومعناها حلول القوة واتحادها بمجال نشاطها، ووصول من ذلك إلى حلول الذات الإلهية في جسم إنسان أي التجسد، ونموذجه السيد المسيح عليه السلام كما جاء عندهم وتابعهم في ذلك بعض فرق المتصوفة الذين زعموا أن الحق اصطفى أجساما حل فيها بمعنى الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية، والأجسام التي اصطفاها الله تعالى أجسام أوليائه وأصفيائه، اصطفاها بطاعته وخدمته وزينها بهدايته، وبين فضلها على خلقه، والذي خلط في الحلول لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، وإنما يحل في القلوب الإيمانية، والتوحيد والمعرفة، وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة الصنع الله بهم، ولا هو بذاته أو بصفاته يحل فيه.(3)

4 - التأثير اليهودي:

لا يظهر في التصوف تأثير يهودي بارز إلا ما كان عند البعض أصحاب الانحراف أو الشطحات من القول بالاتحاد. عند العودة إلى ما ينقل عن اليهود من نصوص نجدهم وقد

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:54.
(2) تلبيس إبليس لابن الجوزي تصحيح ونشر دار الطباعة المنبرية القاهرة بمساعدة علماء الأزهر الشريف سنة 1368هـ دار الكتب العلمية بيروت ص: 171.
(3) معجم مصطلحات الصوفية عبد المنعم الحنفي الطبعة:1 دار المسيرة 1980 بيروت. ص:82.

أعطوا للذات الإلهية أوصافا حسية تجعل من الله تعالى شبها مع الإنسان وهذا ما عرف عندهم بفكرة الإتحاد، ويتجلى ذلك في تصورهم الله تعالى على نحو بشرى. لقد أعطوا للذات الإلهية صفات الجسيمة والانفعال، من مثل قولهم: أن الله فرغ من عمله في خلق العالم في اليوم السادس فاستراح في اليوم السابع، وأن الرب بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه. وأن الله يمضي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد نادبا على خراب بيته وإحراق الهيكل، فهذا ما جاء في الثورات المحرفة والمزيفة.[1]

فهذا التشبيه يوصل إلى القول باتحاد المخلوق بالخالق. وهذا الرأي هو رأي الحلولية بشكل معكوس إذ هو اتحاد المخلوق بالخالق، بل اتحاد الخالق بالمخلوق، وهو رأي فاسد لأنه يجانس بين الله والمخلوقات مما يتعارض مع النفي المماثلة الذي جاء في الآية الكريمة قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ}[2] وإذا كان بعض أصحاب الشطحات قد اعتقدوا الوصول إلى حالة الفناء في الحق حيث تتحد الذاتان: ذات الله وذات الفاني فيه من الصوفيين، فهذا من آثار انحرافات اليهود، ولا علاقة له بالإسلام الحق من قريب أو بعيد.[3]

يقول الطوسي: «أما القوم الذين غلطوا في فناء البشرية سمعوا كلام المتحققين في الفناء. فظنوا أنه فناء البشرية، فوقعوا في الوسوسة، فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أن البشرية هي القالب والجثة إذا ضعف زالت بشريتها فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الإلهية. ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية، لأن البشرية لا تزول عن البشر».[4]

ويضيفون بأن الصوفي يبلغ أرقى درجات الفناء عندما يفني عن فنائه، أي عندما ينقطع شعوره بحال فنائه وإدراكه إياه. وانقطاع الشعور بالذات عند الفناء كما يزعم المنحرفون من الصوفيين يقود إلى حالة الجدب وهنا يظنون أن المخلوق قد اتحد بالخالق مما يظلهم. عن جادة الصواب. وتراهم يقولون: إن الجذب هو أرقي الأحوال، إذ أنه حال اتحاد الصوفي بالحق. والصوفي المجذوب وصل إلى مقام الولاية وأصبح في غير حاجة بعد ذلك إلى برهان

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص: 56.

(2) سورة الشورى الآية:11.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:57.

(4) اللمع في التصوف للطوسي. ص: 427.

على ولايته. قال الصوفية إن أهل الحق الذين تولي الله بواطنهم لا يحكم عليهم بظواهرهم، فإن عملهم بالغيب قد يحملهم على فعل ما يخالف الشرع أو الأدب. فليس من المقبول أن نبيح لبعض الأفراد تحت شعار الجذب أن يمارسوا ما لا يرضاه الله تعالى، ولا يتناسب مع أحكام الشرع الحنيف.[1]

المطلب الثاني: علاقة التصوف بالفقه

إن الفقهاء، وهم منارات الأمة على طريق تطبيق أحكام الشريعة، قد تفرغوا لدراسة علوم الإسلام ونصوص بفهم وروية تمهيدا لاستنباط الأحكام، وإيضاح المشكل والغامض من المسائل، فامتازوا بنظر دقيق في ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع، فبينوا ذلك وميزوا الناسخ من المنسوخ، والأصول من الفروع، الخصوص من العموم، بالكتاب والسنة والإجمال والقياس. ووضعوا كل شيء في مواضعه ورتبوا كل حد في مراتبه فبينوا المشكل وحلوا العقد وأوضحوا الطريق وأزالوا الشبهات.[2]

يحفظ الدين وتصان أحكامه من التشويه والأهواء بما قام به الفقهاء. مما ذكرنا. وقد انقسم الفقهاء في التاريخ إلى صنفين: أولها: أهل الرأي: ويأتي في مقدمهم أبو حنيفة النعمان، وأكثرهم في العراق، وهؤلاء يأخذون إلى جانب النصوص بالرأي. ثانيها: أهل الحديث: ويأتي في مقدمهم ملك بن أنس، وأكثرهم في المدينة أو تتلمذوا فيها، وهؤلاء يلتزمون بحرفية النصوص ولا يأخذون بالرأي إلا قليلا. يقف بمقابل الفقهاء على جانب أخر من الاهتمام بالتطبيق لأحكام الشريعة الصوفية الذين ركزوا جل اهتمامهم على تربية النفوس وتذيبها وتزكيتها.[3]

وفي هذا يقول ابن خلدون: صار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات. وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة، ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.[4]

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص: 59.
(2) اللمع في التصوف، ص: 9.
(3) التصوف منشوه ومصطلحاته، ص: 61.
(4) مقدمة ابن خلدون ج/3 ص: 1065 - 1066.

يجب أن نعلم بأن تحصيل علم الفقه وعلم الحديث والإلمام بالعلوم الشريعة ضرورة لابد منها لكل مسلم كل بقدر طاقته على الاستيعاب، وإمكانية في التفرغ للتحصيل، فقبل العبادة والتطبيق لا بد من العلم والمعرفة، لأنه من يمشي على صراط مستقيم عن بصيرة ودراية أهدى ممن يمشي مكبا على وجهه. والصوفي قبل أن يسلك في طريق لا بد من أن يحصل العلوم الفقهية بقدر وإلا كان معرضا، إذا ما تصوف مع الجهل، للانحراف. وقد قيل عن الجنيد قال: كنت إذا قمت من عند سري السقطي قال لي: إذا فارقتني من تجالس؟ فقلت: الحارث المحاسبي، فقال: نعم، خذ من علمه وأدبه... قال فلما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفيا، ولا جعلك صوفيا صاحب حديث. يعني أنك إذا بدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الأصول والسنن، ثم تزهدت وتعبدت تقدمت في علم الصوفية وكنت صوفيا عارفا، وإذ ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن علم السنن، فخرجت غما شاطحا أو غالطا، لجهلك بالأصول والسنن، فأحسن أحوالك أن ترجع إلى علم الظاهر وكتب الأحاديث، لأنه هو الأصل الذي تفرع عليه العبادة والعلم.[1]

فالتصوف ليس علما بما للكلمة من معنى، و إنما سلوك عملي فيه إدامة ذكر وتصفية للقلب، وتزكية للنفس وأخذ بالأشد من الطاعات كي يعرض المتعبد بهذه الطريقة نفسه لنسمات الرحمة الإلهية، ولكن يبقى الفقهاء مرجع الصوفيين في إيضاح الأحكام والحدود.

فالصوفيون اتفقوا مع الفقهاء أصحاب الحديث في معتقداتهم و قبلوا علومهم ولم يخالفهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانبا من البدع و اتباع الهوى ومنوطا بالأسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم و لم يخالفوهم، ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم، ولم يحط بما أحاطوا به علما، فالاهتمام عند الصوفية بالنفس والقلب و الوجدان، قالوا: إن علماء الفقه هم أهل العلم الظاهر، أما الصوفيون فهم علم الباطن.[2]

(1) قون القلوب في معاملة المحبوب للمكي أبو طالب مطبعة البابي الحلبي 1961 مصر ج/1 ص: 322.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 63.

يقول الإمام الغزالي: «علمت أن طريقتهم إنما نتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقه المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحلية بذكر الله عز وجل.»[1]

هذا الأمر جعل الصوفيين يركزون في سيرة النبي ﷺ على جوانب من مظاهر العبادة والأخلاق والتعامل مع الناس أو مع مطالب البدن والحياة العامة، وكذلك وقفوا عند مثل هذه الأمور في سير بعض الصحابة والتابعين، فمدار البحث والعمل في الصوفية هو تربية النفس. والوجه إلى النفس يهدف إلى مسألتين عندهم: أولها: الوصول إلى اليقين، وكلمة اليقين مشتقة من يقن، ويقن الماء في الحوض معناه استقر، وهذا إشارة إلى استقرار النفس واطمئنانها اللذان يتحققان بزوال الشكوك والظنون بإدامة ذكر الله تعالى ومعرفته. ثانيها: الوصول إلى نوع من المعرفة والإدراك المباشر بنوع من الإلهام سماه الصوفيون: الإشراف وهذا يعقب شرح الصدر الذي ذكر فيه النصوص القرآنية، بحيث تحصل المعارف عند الإنسان وكأنها تنبع من ذاته.[2]

ولا يجوز أن يجرد القول في العلم أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر. غير أنا نقول: إن العلم ظاهر وباطن وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة.[3]

المطلب الثالث: منطلقات أهل الصفة التصوف

لقد اشتهر الزهد مند البعثة الرسالية للنبي محمد ﷺ في سلوكه وسلوك أصحابه، واستمر سمة أساسية في سيرة السلف الصالح الذين زهدوا بالدنيا لكي يحبهم الله تعالى، وحتى لا يكون التعلق بالأمور الدنيوية عائقا يعطل عليهم الثواب الأخروي. إن هذا الزهد والتقشف الذي اشتهر في العهد الأول بدأ ينشأ بمقابلة بعد توسع الفتوحات وازدياد إمكانيات البلاد اقتصاديا اهتمام بمظاهر البذخ والصوف وتفنن بألوان المأكل والملبس، مما دفع المقتدين بسيرة السلف الصالح إلى الثورة على هذا النمط المعاشي المستحدث، وكان

(1) المنقذ من الظلال لأبي حامد الغزالي، قدم له فريد جبرالطبعة:2 المكتبة الشرقية 1979 بيروت ص: 35.

(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته. ص: 65.

(3) اللمع في التصوف ص:23.

من نتائج ذلك ظهور تسمية صوفية وتصوف لأول مرة ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وأضاف الصوفيون إلى مقولتهم هذه قراءة سيرة النبي ﷺ، وصحبه والتابعين، واتخذوا من مظاهر العبادة والزهد في هذه السيرة حجة وذريعة لسلامة ما قاموا به، وحاولوا أن يجدوا لكل مصطلح صوفي، أو سلوك صوفي مصدرا في النص القرآني، أو في السيرة النبوية الشريفة، أو في سلوك الصحابة والتابعين. فما هي هذه الموارد التي اعتمدوها؟ (1)

الفرع الأول: من حياة النبي ﷺ وسيرته

إن حياة النبي ﷺ منذ النشأة الأولى - قبل البعثة الرسالية - تميزت بسمات خاصة، وخصال لم يكن ليدانيه فيها معاصر له، مما جعل مجتمع كفار قريش يقف موقف تقدير لهذه الشخصية الفريدة، وكان من مظاهر هذا الموقف أنه قد أطلق على النبي ﷺ لقب: الأمين الصادق، وموقفه النبيل يوم وضع الحجر الأسود بحكمة صائبة والوجه الآخر في سمات الشخصية قبل البعثة فهو ما دأب عليه النبي ﷺ من تعبد الله تعالى في غار حراء حيث كان يعتزل الناس في جاهليتهم، وأنغالهم بالدنيا، تفارقهم شهرا كاملا وكانت عبادته على ملة جده ابراهيم عليه السلا، أي الحنفية الأولى، وهذا السلوك اتخذه الصوفية و سموه بالخلوة والتي هي ضرورة عندهم لكل متصوف. ونصل بعد ذلك إلى مظاهر من السيرة بعد رسالة حيث يتوقف الصوفيون أمام معجزة ومحطة هامة في السيرة النبوية تحقق فيها للنبي محمد ﷺ من المشاهدات والمعجزات ما لم يعط لغيره حتى الأنبياء والرسل عليهم السلام، ألا وهي معجزة الإسراء والمعراج. وإن ليلة الإسراء هي معجزة تدل على الاصطفاء الإلهي لمحمد ﷺ وعلى الرؤيا والمشاهدة من النبي لربه، والرؤية والمشاهدة عند الصوفيين طموح ارسال مطلوب قد تكون لمن أعطاه الله تعالى مكانة الولي، ولمن نال رضى الله وحبه تعالى، ولكن ما يهمنا الفتنا لو أن الصوفيين يسعون - دوما - وهم ينتقلون من مرحلة إلى أخرى في الطريق الصوفي إلى حالة المسافة والرؤية القلبية ولذلك تعد معجزة الإسراء والمعراج محطة هامة ومنطلقا لحال الوجد، وللسمو الروحي عند المتصوف فوق الحس ومتطلبات الدنيا.(2)

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:69-70.

(2) نفسه ص:72-73.

والمنطلق الأخر المأخوذ مثالا عند الصوفيين هو ذلك التعريف للدرجة التي تكون بعد الإسلام والإيمان في الحديث النبوي الشريف، وهي درجة الإحسان التي لا تكون إلا خاصة أولياء الله تعالى ممن التزموا بالمطلب المحدد. ودرجة الإحسان لا تتحقق للإنسان، ما لم يحتذ في حياته حذو الأخلاق الفاضلة التي جاء بها النبي ﷺ فالأخلاق القويمة هي الدالة على فعل العقيدة والعبادة في نظام حياة الإنسان، فلقد كان ﷺخلقه القرآن. ومن مظاهر الأخلاقية التي يعتمدها الصوفيون ذلك الزهد الذي كان يظهر في كل مظهر من مظاهر حياة الرسولﷺ.[1]

وقد نقل الإمام الغزالي رحمه الله بعض نماذج التقشف والزهد في سيرة النبي ﷺ ومنها أنه كان يلبس من الثياب ما وجد وما تيسر له، وكان ينام على الحصير، ليس تحته شيء غيره. كان يأكل مما حضر الطعام، أما عن تواضعه فكان يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين، وكان يرقب الثوب ويخصف النعل، ويساعد أهله في حاجتهم، ويجالس حيث انتهى به المجلس. [2]

أما عن لبس الصوف وما ينقله الصوفيين أن النبي ﷺ قد لبس الصوف واستحسنه فقد ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلبس الصوف. وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئا.

وكان لا يرد من دعاه ولا يحقر ما دعي إليه. وكان لين الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساما من غير ضحك محزونا من غير عبوس متواضعا من غير ذل جوادا من غير سرف.[3]

إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تمثل أنوارا كاشفة لطريق السبيل السوي، فهذه المحطات التي ذكرت وهي قليل من الكثير هي من المحطات التي أراد الصوفيون أن يتخذوا منها حجة من السير لتبرير سلامة وصحة ما يقومون به ويلتزمونه.

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص:74.

(2) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي تقديم بدوي طبانة. دار إحياء الكتب العربية القاهرة. ج/ 27 ص: 354.

(3) اللمع في التصوف ص:97.

الفرع الثاني: من حياة الصحابة رضي الله عنهم

وقد اخترت من حياة الصحابة رضي الله عنهم الخلفاء الأربع، حتى لا يطول بنا الأمر.

أ- من حياة أبي بكر رضي الله عنه: يعتمد الصوفيون في جملة مصادر تنظيم طرقهم على سيرة الصحابة الفضلاء، وفي مقدمتهم الخليفة الراشد الأول، والمرافق للنبي ﷺ منذ انطلاق الإسلام. وهذا الكلام يؤكد قول لأحد أوائل المتصوفين، هو أبي بكر الواسطي الذي قال: «أول لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه إشارة، فاستخرج منها أهل الفهم لطائفة توسوس فيها العقلاء. وإن الاطمئنان في توحيد الله تعالى، وأخذ سنة نبيه دون الالتفات إلى الدنيا هو في سلوك أهل التوحيد المنفردين بذلك. ويقترن مع هذا الاطمئنان الذي أظهره أبو بكر لحظة انتشار نبأ وفاة النبي محمد ﷺ، حيث اضطربت أفئدة الكثير من الصحابة من هول الصدمة، وكان بعضهم في حال انفعال شديد، فإذا بالصديق يوجههم، وهم قد أصابتهم الخشية على ذهاب الإسلام بموت النبي صلى ﷺ، فيقول لهم مخاطبا: {من كان يعبد منكم محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت}. وهنا يتضح لنا ثبات أبوبكر في توحيد الله مما ساهم في تثبيت قلوب الصحابة، وقرأ عليهم قول الله تعالى: {۞وَمَا مُحَمَّدٌ اِلَّا رَسُول قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ اِ۬لرُّسُلُۖ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ اَ۪نقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۖ}.(1)

ولقد اتصف أبوبكر رضي الله عنه بأحوال العزوف عن العاجلة من الآجلة، وهذا مما يربط الصوفيين بسيرته لأن من تعريفات التصوف أن التصوف تطليق الدنيا بتاتا، والإعراض عن منالها ثباتا.(2)

ويدخل في أنواع تواضعه وورعه أنه تهيب عند استلام الخلافة أن يعتمد في معاش عائلته على بيت المال لولا أن طلب المسلمون منه ذلك. كما تميز بالورع المقرون بالزهد، حيث كان يتقي الشبهات في كل ما يعرض له، ومنها طعامه. فهذا الزهد كان أبو بكر يريد من ورائه، أن ينال رضوان الله الذي يجب العبد الزاهد في الدنيا، وقد روي في الأثر أن أبا بكر رضي الله

(1) سورة آل عمران الآية:144.

(2) التصوف منشؤه ومصلحاته، ص: 82-83-85.

عنه كان يقول: «إن العبد إذا دخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة» ولقد حكي عن الصوفي الشهير الجنيد، أنه قال: «أشرف كلمة في التوحيد قول أبي بكر رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى ورقة إلا العجز عن معرفته.»[1]

ب - من حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يعود الصوفيون إلى سيرة الفارق في كثير من مظاهر لأخذ النموذج الذي يطمحون إلى تقليده، وقد انعكس سلوك عمر رضي الله عنه في ولايته ومعاصره فكان مثلا يحتذي في الزهد وهجر زينة الدنيا طلبا لثواب الآخرة. وقد كثرت الرواية حول وصف سلوكه وتواضعه وتقشفه، وكان يلبس الخشن، والجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره، ويشمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة رزقها، وكان أكثر ركابه الإبل ورحله مشدود بالليف ومما يذكر في لباسه أنه أبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج واعتذر للناس وقال: إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره. فزهد عمر الفاروق لم يكن بسبب قلة الموارد في أيامه وعدم توفر سبل العيش الرخي، ولكن ذلك كان منهاجا واقتناعا أراد الخير في الآخرة فهجر زينة الدنيا.[2]

وقد عرف بشدة خوفه فكان يقول: «ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا. وكان عمر رضوان الله عليه يمر بالآية في ورده الليالي فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض. فالخوف قاد عمر رضي الله عنه إلى التزام الأشد من الطاعات، وكان التزامه مقرونا بالبكاء من خشية الله عز وجل، وكان يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم». ولم يكن عمر الفاروق ليرغب في الانقطاع عن الدنيا أو يشجع عليه، ولذلك يؤثر أنه طرد قوما وجدهم جلوسا في المسجد وأمرهم بالخروج للكسب وطلب الرزق. إن عمرا الذي كان فيه ما ذكرنا وهو قليل من خصاله وسيرته دخل دائرة من اصطفاهم الله أولياء له، فأعطاهم كرامات كان من أشهرها عند عمر رضي الله عنه ما نقل في الأثر عن ندائه السارية بن زنيم وهو يقاتل على أبواب نهاوند بفارس.[3]

(1) التصوف منشؤه ومصلحاته ص:87.

(2) نفسه ص:88-89.

(3) صفة الصفوة لابن الجوزي تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان. الطبعة:2 حيدر أباد الهند 1970. ج/ 1 ص: 109-110.

بهذه الكرامة ننهي تلك السمات الطيبة ذات البعد الروحي في شخصية الفاروق الذي تعلقت به القلوب، وصبت إلى قراءة سيرته النفوس، خاصة الصوفية أصحاب الأذواق.

ج- من حياة عثمان بن عفان رضي الله عنه: لقد ظفر عثمان رضي الله عنه بطلب النسب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث تزوج بابنتيه تباعا رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما. امتاز عثمان بالحياء، وكان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد. كان يقضي نهاره في السعي والجود، وليله في العبادة وتقديم الطاعات والنوافل، وامتاز بالصبر على المكاره، والثبات في الشدائد. والصبر المقترن بالثبات والتمكين ظهر عند عثمان يوم حصره الثائرون عليه في بيته تسعة وأربعين يوما، وفي كل هذا الحصار روي أنه لم يبرح مكانه وموضعه، ولم يأذن لأحد بالقتال، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل رضي الله عنه. إن ذا النورين المبشر بالبلوى، والذي واجه المحنة كانت له هذه النتيجة كرامة ترافقت مع مقتله فيها وعد من الله تعالى بأنه سبحانه سيوقع العقاب على من أذوا واحدا من عباده المرضيين، ومصدقا لقوله تعالى: {۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ}[1] [2]

ولكن وقد يقول قائل: ما للصوفيين في نهج عثمان وقد سعى في جمع المال ورغب فيه وهم يبنون طريقهم على الزهد؟ والجواب عند عثمان رضي الله عنه نفسه الذي لم يكن ليجمع المال وهو على رغبة بأمر دنيوي وطموح ذي طابع مادي، وإنما كان من خصاله السعي في جمع المال وتوفيره لإنفاقه في سبيل الله والدعوة.[3]

روي أن عثمان رضي الله عنه قال: «في سبب سعيه للمال لولا أني خشيت أن يكون في الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته.»[4]

---

(1) سورة الحج الآية:36.

(2) التصرف منشؤه ومصطلحاته ص: 94.

(3) نفسه. ص: 94-95.

(4) اللمع في التصوف للطوسي ص: 176.

د - من حياة الإمام علي كرم الله وجهه:الإمام هو ذاك الفتى الذي تربى في بيت النبوة ولم يتعرف على شيء من أخلاقه في الجاهلية، ولا من أنماط سلوك أهلها، وهو الذي لم يعبد صنما قبل البعثة الرسالية، بل نشأ على عقيدة التوحيد.

وكان الإمام حجة في علمه وبلاغته وتميز عن سائر الصحابة بهذه الصفة. لذلك يحاول الصوفيون تقليد الإمام علي كرم الله وجهه في دعائم إيمانه التي تشكل عندهم منطلقات أساسية لسلوك الطريق الموصول إلى الولاية. هذه المنطلقات حددها الإمام على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد.[1]

فلقد كان مثلا في الزهد وإقلاعه عن زينة الحياة الدنيا. ومما جاء في زهده ما روي عنه أنه قال لعمر بن الخطاب: إن أردت أن تلقى صاحبك فرقع قميصك، واخصف نعلك، وقصر أملك، وكل دون الشبع. ونقل عنه أبيات قال فيها:

حقيق بالتواضع من يموت ويكفي المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم وحرص ليس تدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم سُكُــوت[2]

والزهد عند الإمام قائم على القاعدة الإسلامية في التمييز بين الدنيا وهي دار ممر، وبين الآخرة وهي دار المقر وهي خير وأبقى، وبالتالي فالحياة الدنيا ليست سوى فرصة أمام الإنسان لتزود فيها بالعمل الصالح قبل الموت. وكان يقول الإمام حينما سئل: من أسلم الناس من سائر العيوب؟ فقال: من جعل عقله أميره، وحذره وزيره، والموعظة زمانه، والصبر قائده، والاعتصام بالتقوى ظهيره، وخوف الله تعالى جليسه، وذكر الموت والبلى أنيسه. يضاف إلى ذلك المفهوم الراقي لأخلاق الخير كما يحددها الإمام في قوله: الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغوى، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي فترة.[3]

(1) اللمع في التصوف ص:180.
(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 99.
(3) نفسه:101.

كل هذه اللطائف جعلت من الإمام إنسانا عابدا زاهدا تقيا ورعا مخلقا. فتعلق الصوفية بهذه الحقائق.

المبحث الثالث: الصوفية السنية والصوفية الباطلة الطرقية وموقف البوطي ووالده من التصوف والبدع

المطلب الأول: الفصل بين الصوفية السنية النقية والصوفية الطرقية الباطلة

بقطع النظر عن كلمة تصوف وما دار من جدل حول معناها وأصلها، وحول مدى مشروعية التعبير بها عن مضمون لم يظهر لكثير من الناس مدى علاقته بالإسلام، سواء في مبادئه الأساسية أو جوانبه الكمالية والتحسيسية، فإن من الأهمية بمكان نتبين المعنى المراد بهذه الكلمة، ثم نتبين العلاقة بينه وبين حقيقة الإسلام ذلك لأننا إن أدركنا هذه العلاقة، من خلال موضوعية علمية متحررة، كان بوسعنا، بل ترتب علينا أن نجعل من هذه العلاقة ميزانا يكشف عن مدى شرعية هذا المضمون أو عدم شرعيته، ما دمنا نتخذ، بصدق من الإسلام محور التزامنا الفكري والسلوكي على السواء.

الفرع الأول: الصوفية السنية النقية

أجمع ما يكشف عن المعنى المراد بكلمة التصوف الصحيح، ويوضح العلاقة بينه وبين حقيقة الإسلام، يتمثل في عرض الحقيقة التالية:

إن قيمة التزام المسلم بالإسلام تظهر على صعيدين اثنين، قد يتضافران ويجتمعان، وقد ينفك الواحد منهما عن الأخر. أما الصعيد الأول: فهو السياحة الدنيوية التي يتجلى فيها تعامل الناس بعضهم مع بعض، ومن المعروف أن الإنسان يجب أن يعامل على أنه مسلم، من كل الجوانب، بمجرد أن يتوفر أركان الإسلام في ظاهر أقواله وأفعاله، بان ينطق بشهادة الإسلام، ويذعن لأركانه العلمية، ولا يبدر منه في الظاهر ما يدل على إنكاره وعبادته جميعا بالصحة والقبول ما دامت هي في الظاهر كذلك. أي فليس لقاض أن يتهم مسلما بخلاف الطاعات والعقود. والصعيد الثاني فهو صفاء القصد والإخلاص وموافقة الظاهر الذي كان يراه الناس للباطن الخفي الذي يطلع عليه عز وجل فهذا هو أساس قضائه عز وجل في حق

عباده يوم القيامة، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ}[1]

غير أن المشكلة التي كان لا بدلها أن تؤرق فكر المسلم الصادق في إسلامه، والراغب حقا في النجاة يوم القيامة هي مشكلة التوفيق بين الظاهر من أحكام السلوك الدينية، والباطن من الإخلاص لوجه الله تعالى فيها، والصدق في إلتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه ابتغاء وجهه وحده، وتطهير القلب من العوائل التي لا يطلع عليها إلا الله ولا يحاسب عليها غيره، والتي تصد صاحبها عن بلوغ درجة الإخلاص في الأعمال والصفاء في النية.[2]

ذلك لأن من السهل على الإنسان أن يتحلى في ظاهره بكثير من أوامر الله وأحكامه دون أي انضباط حقيقي وجوهري بها، ودون أي إخلاص قلبي لها، ابتغاء الحصول على الحقوق والامتيازات الإسلامية في حياته الدنيوية، ولا يكلفه ذلك أكثر من مصانعه للناس، وستر لبواطن الزغل والانحراف يظاهر من الاستقامة والالتزام. أما الأمر العسير حقا، فهو السعي إلى تطويع الباطن لما قد تحلى به الظاهر، بحيث يصبح ظاهر المسلم عنوانا على باطنه، فإن تلبيس ظاهره بأعمال الصلاة أو النسك، كان قلبه متصرفا بالخشية والخضوع إلى مراقبة الله وذكره، وإن عامل الناس بمقتضى الأحكام الشرعية فيما يبديه لهم من ظاهر معاملاته، كان في قلبه من خشية الله وتعظيمه ما يجعله يفيض إخلاصا للناس فيما يظهر لهم منه، وما يضمن تحقيق كامل التنافس والتفاعل ما يريهم من ظاهر أعماله وما يعامل الله به من باطن مشاعره وتصوره.[3]

إن تحقيق هذه الأمور، يقتضي بالضرورة أن يتجرد القلب من آفات الكبر والأنانية الضغائن، وأن يتجرد من سلطان الشهوات والأهواء الجانحة ويتحرر من محبة الدنيا وزخرفها. فالتصوف الإسلامي النقي السني الصحيح تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج للأمراض التي تنغرس في القلوب، واقتلاع للرذائل، وقمع للشهوات، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات. وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة نزاعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على

(1) سورة البينة الآية:5.

(2) مجلة منار الإسلام، مقال البوطي عن الصوفية السنية السليمة العدد الثامن السنة 13-19 مارس 1988م.ص 17-19-18.

(3) مجلة منار الإسلام، مقال البوطي عن الصوفية السنية السليمة العدد الثامن السنة 13-19 مارس 1988م.ص: 19.

أعمالها، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات والخطرات، وانقطاع عما يفوق السالك في سيره إلى الله، وزهادة في كل ما يلهي الله و ذكره ويعلق بالقلوب سواه معرفة لله و يقين، وتوحيد الله وتمجيد، وتوجيه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبد بشريعته، وتعرض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلا منه وكرما. وهو أيضا علم وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد عنها. فالتصوف النقي هو لب الشريعة وروحها وثمرتها وحكمتها، الذي لا يخالطه زيغ ولا شطط ولا جهل وابتداع ولا شوائب، فهو تصوف العلماء والنساك العارفين بالله تعالى القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته.(1)

والصوفية السنية هي التي تقوم على العبادة إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف. وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الإتباع والاقتداء ما استطاعوا. ومن عرض له شيء من ذلك أعراض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراك النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم الله أوسع وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك فلم ينطقوا بشيء مما يدعون، بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس من قبل الكشف من الإتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد.(2)

والتصوف الحقيقي السليم، هو لب الإسلام وجوهره الكامن في أعماق فؤاد الإنسان المسلم وبدونه يغدر الإسلام مجرد رسوم ومظاهر وشعارات يجامل بها الناس بعضهم بعضا. وهذا اللباب يتمثل في الرغبة والرهبة إذ تهيمنا على قلب المسلم حبا لله ومخافة منه فيتطهر فؤاده من إدراك الضغائن والأحقاد وحب الدنيا، ويزداد بذلك مراقبة الله وتمسكا بشرائعه وأحكامه، ويزداد حيطة في تجنب المحرمات والقيام بالواجبات، ومبادرة إلى حقوق العبادة.

(1) رسالة المسترشيدين للحارث بن المحاسبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط: 3 دار السلام 1988 حلب ص: 8-9.
(2) المقدمة لابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ط: 2 المكتبة العصرية 2000 بيروت ص:449-450.

وإنما المثل الأعلى في هذا كله سيدنا محمد ﷺ ثم الرعيل الأول من هذه الأمة، وهم أصحاب البررة الكرام. ولا توقفنك إزاء هذه الحقيقة مشكلة الاسم، فلقد كان التحلي بهذا اللباب في صدر الإسلام المسمى، لا اسم له إلا الإسلام الحقيقي الذي يستدعي من صاحبه تزكية النفس والسعي إلى بلوغ درجات الإحسان. فلما أصبح لفظ الإسلام فيما بعد مجرد شعار يتحلى به أكثر من الناس في الظاهر، ثم تفيض قلوبهم بنقيض ما يدل عليه هذه الشعائر في الباطن، قام من أحب أن يميز الإسلام الحقيقي الذي لا يزال ضاربا جذور الحب والخشية في قلوب أصحابه، و لا يزال يتعهد أصحابه بذكر الله ودوام مراقبته، فأطلقوا عليهم المتصوفون، وخصصوا هذا التعهد القلبي باسم التصوف. ولا ضير في أن نتجاوز اليوم هذا الاسم، بل هذا ما أفضله وأدعو إليه، على أن ندرك من وراء هذا الاسم لبابا هو جوهر الإسلام وروحه، فلا نهمله ولا نتهاون به اكتفاء بالظاهر والأشكال التي ثبت أنها لم تغن أصحابها من آمالهم الدنيوية شيئا، ويقينا أنها لم تغنهم شينا عن العقبي من باب أولى.(1)

ولعلنا أدركنا الأصالة في كلمة الصوفية والصوفي، ذلك بأنها تسلب إرادة صاحبها إلى الله عز وجل، كما تسلب الصوفة الملقاة إرادتها للريح، أو أنها ضاربة بجذورها إلى أهل العفة المتوجهين إلى الله على عهد رسول الله ﷺ، كما أن الناظر إلى خلوة رسول الله ﷺ في غار حراء قبل البعثة، وسلوكياته التي يهتدي بها الصوفية دائما يجد أنها كانت عن طبيعة سجية ولم تكن عن تكلف وتصنع مما يؤكد أصالتها وإسلاميتها، كما يؤكد أن استجابة الوعي الإنساني لقوى الطبيعة إنما يتشابه في كل زمان ومكان. فمن المعلوم أن رسول الله ﷺ جاءه الوحي بعد فترة من الخلوة التأملية انقطع فيها عن ظواهر الوجود، سعيا وراء حقائقه، فترك العمران في مكة، وتحول إلى جبل بعيدا عن صنعة الإنسان، ثم تحول إلى ظلام مطبق في جوف الغار، وتردد بينها حسبما تطيق نفسه وتحتمل من الاستمرار والفاعلية والانفعال.(2)

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله عن أثر هذه العزلة في حياة الصوفية: «التفرغ إلى العبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله من أمور الدنيا والآخرة، وملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغا، ولا فراغ مع المخالطة، لذلك كان الرسول ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، وينعزل إليه،

(1) السلفية للبوطي، ط:1 دار الفكر 1988م دمشق. ص: 117-118.
(2) التصوف الإسلامي لعبد القادر أحمد عطا الطبعة:1 دار الجيل 987 بيروت، ص:187.

حتى قوي فيه نور النبوة، فكان الخلق لا يحجبونه من الله فكان ببدنه مع الخلق، وبقلبه مقبلا على الله.»[1]

وفي الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - هو التعبد- الليالي ذوات العدد.» [2]

إذن فلا دخل لرسول الله ﷺ في ذلك الأمر الذي ابتدأه الله به وهو الرؤيا الصالحة، ولا في حب العزلة التي حببت إليه، ولم يقلد فيها أحدا من الناس.

و النظرة الدقيقة إلى سلوك النبي ﷺ تعطينا الإيمان الحقيقي على غاية من الأهمية من ناحية الفصل في قضية الاقتباس التي اهتم بها الصوفية المسلمين وأنهم اقتبسوا تصوفهم من تصوف غيرهم، وذلك أن أخلاق الرسول ﷺ وسلوكياته وهي المنار الذي يهتدي به الصوفي السني دائما إنما كانت عن طبيعة وسجية ولم تكن عن تكلف وتصنع كما كان الحال بالنسبة للقوم الذين رمي المسلمون بالاقتباس منهم وليس هذا الحكم نظر بشري يتحمل النقض أو الجدل، وإنما هو حكم الله في كتابه حيث يستعبد الجدل حوله، كما يستعيد احتمال البطلان لمضمونه، قال تعالى: {قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْر وَمَآ أَنَا مِنَ اَ۬لْمُتَكَلِّفِينَۖ}[3] وتلك هي الغاية التي يجاهد الصوفي المسلم نفسه للوصول إلى صورة من صورها. ومن هنا يمكن القول بأن اقتباس الصوفيين من تصوف غيرهم، هو قول لا يستقيم مع هذه الحقيقة التي سقناها.[4]

وقد اجتهد الصوفية السنيين في ربط عملهم بالسنة. وإذا كان العلم لا يناقش حق إدراجه من بين علوم الأمة، ولم يحتج بالتالي إلى تسنين وجوده، فقد واجه الصوفية صعوبة كبيرة لإثبات سنية سلوكهم في كل أشكاله ومواصفاته. لذلك اهتم الصوفية اهتماما عظيما بالمقامات والأحوال، وهم في ذلك يتفقون مع ابن تيمية الذي كان يسمي هذه المقامات

(1) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ج/ 2 ص: 201-202.
(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، الباب 3، دار الكتب العلمية 1999 بيروت، ج/ 1، ص:6.
(3) سورة ص الأية:84.
(4) التصوف الإسلامي لعبد القادر عطا ص: 198.

والأحوال بأعمال القلوب، ويعتبرها من أصول الإيمان وقواعد الذين وأهمها: محبة الله سبحانه ومحبة رسول الله ﷺ، والتوكل على الله والإخلاص له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء الله... وهذه الأعمال في الأصل ليست خاصة بالصوفية وحدهم بل هي واجبة على الجميع، ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق. لكن الناس ليسوا على درجة واحدة منها: فمنهم متصد، ومنهم سابق بالخيرات فالأول هو الذي يترك المأمورات ويفعل المحظورات. والثاني هو الذي يقوم بالوجبات ويبتعد عن المحرمات. والثالث هو الذي يبتعد عن المحرمات ويتقرب إلى الله تعالى بالوجبات لذلك لم يكن في مناهجهم وأصولهم التربوية تلك، ما يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل كان له مأخوذ منه مخرجا عليه، وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يختلفون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة، فاستنبطوا قواعد العربية من لسان العرب وسَليقتهم، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد الأصول في فهم النصوص من اجتهادات الصحابة، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة فاستخرجوا قواعد البلاغة العربية من كلام الله عز وجل.

ولا نزال نذكر في مقدمة من قدموا على هذا الصنيع جلالة وسبقا، الحارث المحاسبي (ت 243هـ) وأحمد بن أبي الحواري (ت 246هـ) والجنيد البغدادي (ت 298هـ) وإنما درج هؤلاء فيما كتبوا ونظموا على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكا وعملا، من جلة التابعين ومن بعدهم كالحسن البصري وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح، وما أخرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط، ولكن إما أن يكون دخوله في هذا الميزان صريحا ومباشرا وإما أن يكون اجتهادا واستنباطا. إذن فمهما كانت السبل التربوية غير منصوص عليها في قران أو سنة، نصا مباشرا ولكنها تعين في تزكية النفس وتصعيد العاطفة والوجدان، فإنها تأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها وهذه الغاية داخلة كما يصرح الإمام ابن تيمية رحمه الله في أصول الإيمان وقواعد الدين، فالسعي إلى التحقيق بها واجب على جميع الخلق باتفاق الأئمة.[1]

(1) مجلة منار الإسلام، مقال البوطي عن الصوفية السنية السليمة العدد الثامن السنة 13-19 مارس 1988م ص: 21.

وقد علمنا أن هذا الأصول إنما تدخل كلها في نطاق الأعمال الباطنة، كمحبة الله، والخوف منه، والتوكل عليه، إلى غير ذلك... فمدار ذلك كله على العاطفة والوجدان. فلما أخذ هؤلاء الربانيون أنفسهم بالسبل التربوية المتنوعة للتحقق بهذه الصفات، وأرشدوا إلى ذلك، ومدى الاستمرار عليه، ما سمي بالمقامات، كالأحوال، والفناء، والبقاء، وأطلقوا على من أخذوا أنفسهم بهذه السبل التربوية اسم: السالكين. غير أن هذا السلوك، قد أدركه هو الأخر، ما أدرك أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الأخرى من أدواء البدع والزغل والانحراف عن خطة الاستقامة والقصد، فامتزج بالحق الذي ندب إليه العارفون والربانيون، كثير من الباطل الذي روج له الجاهلون آنا والفسفة والزنادقة آنا أخر.[1]

فالمهم أن نعلم أن هذا السلوك التربوي يمثل لباب الدين، وأن المسلمين الصادقين في إسلامهم مازالوا يلتمسون السبيل الشرعي إليه منذ عصر الصحابة على يومنا هذا، بقطع النظر عن مظاهر الانحراف التي قد تتربص به. وأضيف قائلا بأن الملا رمضان والد البوطي رحمه الله جزم بأن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه، وكانا يؤكدان أن المسلم إذا لم يكن قد تشرب حقيقة التصوف فقد حبس نفسه في معاني الإسلام، ولم يرق صعدا إلى حقيقة الإيمان. ويلح البوطي ووالده رحمه الله على أن التصوف ليس كلمات تورث أو تنقل ولا معارف تحفظ، ولكنه حال يتلبس بكيان المسلم يرقي به إلى مستوى الشهود. وإذا لم يرتفع المسلم إلى مستوى هذا الشهود، فهيهات أن تكون نصوص الأحكام وحدها، بكل ما يحف بها من مؤيدات الجزاء، حافزا كافيا للانضباط الحقيقي بمدلولاتها وأوامرها. وليس للتصوف النقي من معنى إلا أن يأخذ المسلم نفسه بما يوصله إلى هذا الشهود.[2]

أو أن يأخذ بما يوصله إلى ثمرات الإيمان، أو يوصله إلى حقيقة معنى التوحيد، فهي ألفاظ شتى ولكنها جميعا ذات دلالات واحدة. وكان الملا رمضان رحمه الله يرى في رسالة القشيرية ما يبرز حقيقته هذا التصوف النقي السليم، وما يكشف عن عميق ارتباطه بنصوص القرآن الكريم والسنة. [3]

(1) مجلة منار الإسلام، مقال البوطي عن الصوفية السنية السليمة العدد الثامن السنة 13-19 مارس 1988م ص:22.
(2) هذا والدي ص:98.
(3) نفسه ص:99.

فالصوفية السنية هي طريق الوصول إلى الله ووسيلة للاقتداء برسوله ﷺ، والوصول إلى الله لا يعلمه إلا الله، فلا يستطيع أحد أن يعرفك بالله إلا الله. ونحن لا نستطيع أن تتلقى هذا، فالله لا يكلم البشر حتى يعرف كل واحد على حدة، وإنما يعرفهم به عن طريق الخبراء الذين عرفوه. ونجد أن الله تبارك وتعالى جعل الوصول إليه عن طريق من وصل إليه، فالذي وصل إلى الطريق يوصل غيره، لأن الوصول إليه بالهوى لا يمكن فلا بد وأن ينتزع هذا الهوى تماما، وأن يكون المريد مخلصا في غايته طالبا الفلاح من الله تعالى وحده دون سواه.[1]

الفرع الثاني: الصوفية الطرقية الباطلة

لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقين أوزاعا، وما كونوا لأنفسهم جماعات منقسمة، وما أسسوا طريقا يدعون إليها ويبشرون على ضوئها، و لكن كانوا متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ غير عابئين بما سواهما، وعلى ذلك نشأ وتربى خيار التابعين، إلى أن جاء وقت ضعف فيه المسلمون على كثرة، وقلت سطوة عزمهم مع اتساع رقعة أرضهم، حتى نبتت بينهم نابتة دعت إلى تقديس الأشخاص، ومنحهم حق التشريع بالإجابة لكل ما يدعون إليه، سواء كان ذلك المقدس لابسا برد إمام شيعي رافضي، أو متلفعا بلثام شيخ صوفي من أهل الطرقية، فأصبحت بذلك الوراثة الدينية بيد جماعات بأعينها. هذا وقد حاول عدد من الباحثين تحديد المراد من الطريقة عند أهل التصوف كما بدلوا جهودا في الكشف عن ضوابطها، غير أن عباراتهم في تعريف الطريقية تكاد تجمع على عدم وجود ضابط جامع مانع لجميع الطرق. ويرى نيكولسن « أن الصوفية تطلق اسم الطريقية على مجموع القواعد والرسوم التي يفرضها الشيوخ على مريديهم.» ولهذا لم يكن للطريقية صفات ثابتة محدودة، فإن تعاليم على طريقة ترجع إلى شيخها الخاص يدل على ذلك في الطرق الصوفية في تباين وخلاف.[2]

ورغم أن نيكولسن يرجح عدم انضباط تلك القواعد تحت ضابط واحد إلى اختلاف تعاليم الشيوخ وتباين مشاربهم الفكرية إلا أنه قرر أن الطرق كلها تتفق في نقاط وهي: الاحتفال بدخول المزيد في الطرق بطقوس دقيقة مرسومة، وقد يطلب بعض الطرقيين من

(1) كنوز العلم النافع في المنهج الصوفي لإسماعيل صادق العدوي سلسلة كتب التصوف الإسلامي، رقم 34، ص: 23.
(2) الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوج، ج /27 ص: 343.

المريد قبل الدخول في الطرقية، أن يمضي وقتا شافا في الاستعداد للدخول، ثم التزيين بزي خاص، فلا بد أن يكون هناك نوع خاص من الزي يمثل رمزا لأصحابه الطريقة الذين يلبسونه فيميزهم عن غيرهم. كما يتطلب اجتياز المريد مرحلة شاقة في الخلوة الصلاة والصيام وغير ذلك من الرياضات. الإكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التي يكسبها المريد وأصحاب الوجد بالمجاهدات، وهي القوى التي تمكنهم من أعلى الجمرات، والتأثر على التعابين، وضرب أجسامهم بالعصي الغلاظ، والإخبار بالمغيبات احترام المرشد أو الشيخ إلى درجة تقرب من التقديس. لاشك أن ما ذكره يمثل استقرار دقيقا إلى حد بعيد، وإن كانت النقطة الأخيرة ناقصة عن تصوير الحقيقة ما عليه القوم، فإنهم يقدسون الشيء ويسلمون له القيادة ولا يفكرون في أنفسهم ولا في أي شيء آخر إلا فيما يأمر به الشيخ، ولا يخطر ببالهم أن يعارضوا أفعال الشيخ أو أقواله ما يأمر به على الشريعة، لأن ذلك قد يؤدي إلى الاعتراض الذي هو السبب المباشر للإنطراد والخسارة عندهم.

ووصف الشيخ الجزائري الطريقة وصفا دقيقا إلى حد بعيد فقال: «إنها تعني اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به، حيا وميتا، وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره، ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ، وهذا العقد يعرف بالعهد، وصورته: أن يتعهد الطرف الأول - وهو الشيخ - بأن يخلص المريد من كل شدة ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستغيثا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخوله الجنة. ويتعهد الطرف الثاني - هو المريد - بأن يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة، كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق، هذه هي الطريقة المتصوفة المنحرفون.»[1]

ولم يقف منظروا الفكر الصوفي عند الدعوى التلقي من الخواطر التي ترد على القلوب من طرف الشيوخ والأولياء المتصوفة، ولكنهم فتحوا نافذة أخرى هي نشر اعتقاد أن الولي بإمكانه أن يتلقى العلم من الرسول ﷺ ومن الملك ومن اللوح المحفوظ وهذه العقيدة من الخطورة بحيث يفتح باب التشريع على مصراعيه أمام معتقدات، فإن العلم الذي يأتي من رسول أو ينقل من اللوح المحفوظ لا يكون باطلا بحال من الأحوال.[2]

(1) الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوج ج/ 2ص: 344.
(2) نفسه ج/2 ص:250.

فقد نشأ من أن بعض المرتدين، من أهل القرن الرابع الهجري، لما رأوا توسع الفقهاء في الشرع وتفنن المتكلمين في العقائد، فهم كذلك اقتبسوا من فلسفة فيتاغورس وتلامذته في الإلهيات قواعد، وانتزعوا من اللاهوتيات الكتابيين والوثنيين جملا، ألبسوا لباسا إسلاميا، فجعلوه علما مخصوصا ميزوه باسم علم التصوف.

إن مدعي الطرقية منحوا نفوذا من الحكام المستبدين فأصابهم حظ من الثراء أفسدوا به الدين وبواسطة نفوذهم المقرون بالمزاعم، جعلوا كثيرا من المدارس تكايا الباطلين الذين يشهدون لهم زورا بالكرامات المرهبة، وبه حولوا كثيرا من الجوامع مجامع للطالبين، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم، وجعلوا مداخل الأوقات والأمراء والملوك عطايا لأتباعهم.[1]

كما ساهم الاعتقاد الخاطئ للعامة بدور شيوخ الطرق وموقعهم الإسلامي يجوز أن يكون لغير الله تعالى ومنه، فكأن شبهة وثنية تركت بصماتها على سلوك نشره الجهلة الذين يمشون مكبين على وجههم، ولا يبحثون عن الصراط المستقيم، علما أن الكثير من هذه المزاعم والشطحات لم تكن في أصل نشأة التصوف الذي قام إسلاميا بالأساس فأفسده بعضهم بما أدخلوا عليه من مفاهيم مصدرها غير إسلامي من بدع وانحرافات.[2]

فالطرق التي رسمها كثير من الشيوخ، كسبل تربوية لتحقيق الغاية ذاتها فلم تخل فيما مضى ولا تخلو الآن من البدع. ونظرا إلى أن الملا رمضان رحمه الله كان شديد الإصرار على التصوف النقي، من حيث إنه كان شديد الإصرار على الانضباط بنصوص القرآن والسنة، شديد الحذر من التورط في البدع، فقد كان ينبه دائما إلى ضرورة التفريق بين التصوف الذي لا يمكن أن يحي الإيمان في القلب إلا به، والطرق الصوفية التي كثيرا ما تكون بؤرة لكثير من البدع. وكان يقول: «إن الطرق الصوفية كلها لا تخلوا من البدع.»[3]

فالتصوف الزائف انتحله قديما فئات من الناس، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، وتدثروا بدثار الصوفية، اجتنابا للعامة، وتعزيزا وخداعا وتلبيسا، ودسوا في التصوف

(1) أم القرى للكواكبي، طبعة مؤسسة ناصر الثقافية 1981 بيروت، ص: 151.

(2) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 168.

(3) هذا والدي ص:99.

إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين اضلالا للمسلمين، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء، وينكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام وقد كشف خبثهم وفند مزاعمهم، وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن القيم رضي الله عنهما. هناك أخرون انتسبوا إلى الصوفية زورا، واتخذوها سمة وحرفة، وتوارثوا فيما بينهم بدعا وشعارات زائفة، وتقاليد منكرة، يبرأ منها التصوف وأعلامه من أولي العلم واليقين. وهؤلاء كذلك أدعياء في التصوف دخلاء في الصوفية مبتدعون آثمون.(1)

وإحقاقا للحق، وإنصافا للصادقين، يجب أن لا نحمل أوزار أولئك الأدعياء المبطلين وأن لا يطلق القول في ذم التصوف و الصوفية - قبل أن نقرأ ونتفحص وننقب - بل يعطي كل فريق حقه من المدح أو الذم، ومن الترغيب أوالتحذير، دون تعصب أوتحيف. ثم إن بعض الواهين اعتبروا أن شيوخهم توصلهم إلى الله تعالى لبركاتهم، واكتفوا فقط بذلك، وقالوا نحن في ذيل الشيخ نحن في ذيل الصالحين، دون عمل وهل للصالحين ذيل؟ حتى هذا التعبير تعبير سخيف لا يوصف به إلا الحيوان. قيل أو يقال بحسن نية، إن الوصول إلى الله لا يعرف الجهالة وإنما يعرف دقة الأمر والنهي، أن نعلم هذا يوصل وهذا لا يوصل وهذا يعرفك بالله، وهذا يبعدك عن الله ليس هناك أمر ثالث، اكتفى البعض ببعض التسبيحات ككل وهذه التسبيحات بألف أو بمائة ألف، يقال في بعض الطرق هي الدائرة الأولى أو هي التحضير، ولا مانع من الذكر ولكن سلوك هؤلاء الطرقيين لا يعتبر سلوكا يعرف الناس بالله تعالى ولا يعتبر سلوكا يوصل إلى الله. فبعد هذه التسبيحات نجد أن الواهم أنه يوصل، يصل بذكر ثم يعصي الله في أمور كثيرة، فلا مانع أن يشرب الشيخ الدخان أو السجائر في وسط مريديه أو إخوانه، ولا مانع أن يفعل غير ذلك وإن قيل لبعضهم، كيف يشرب الشيخ أو يشرب المريد؟ قالوا إن الأنوار قد ازدادت فيريد أن يطفئها. فهؤلاء المتصوفة المدعون الذين ينامون الليالي والأيام لمجرد أن يمسك بمسبحة طويلة أو قصيرة لا...لا التصوف ممارسة وحقيقة ومجاهدة.(2)

---

(1) رسالة المسترشدين، ص: 11-12.

(2) من كنوز العلم النافع في المنهج الصوفي لإسماعيل علي صادق العدوي السلسلة:34 ص:31.

المطلب الثاني: موقف البوطي ووالده رحمه الله من التصوف والبدع

يرى البوطي ووالده الملا رمضان رحمهما الله أن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه. وهما يؤكدان أن المسلم إذا لم يكن قد شرب حقيقة التصوف، فقد حبس نفسه في معاني الإسلام، ولم يرق صعدا إلى حقيقة الإيمان. فالتصوف هو التزام الحقيقي بأوامر الله عز وجل ويأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان الله في القلب وليس لهذا الإيمان من ثمرات إلا حب الله وتعظيمه والخوف منه والرضا عنه والثقة به والاتكال عليه والفناء في ذلك كله عن الأغيار. ومن ازدهار مجموعة من هذه الثمرات الإيمانية يتحقق معنى شهود العبد للرب. وهذا الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه على منهج الآداب والواجبات، إذ هو في كل أحواله وتقلباته، مع الله عز وجل في مراقبته له وذكره إياه وانسياقه في مشاعر الخوف منه والحب له والرضا عنه والثقة به.(1)

الفرع الأول: علاقة التصوف بالطرق من تقدير البوطي ووالده

لم يكن هذا التقدير الذي كان يراه البوطي ووالده للتصوف، مقتضيا بالضرورة أن يسري إلى الطرق الصوفية أيضا. بل كان يريا أن التلازم منفك بينهما. فالتصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذا من كتاب الله وسنة رسوله، ذلك لأن السعي إلى الوصول إلى ثمرات الإيمان بالله في القلب واجب رسمه القرآن وأكدته السنة. أما الطرق التي رسمها كثير من الشيوخ والموجهين باسم الصوفية كسبيل تربوية لتحقيق الغاية ذاتها، فلم تخلو هذه الطرق من بدع ومعتقدات خاطئة. ونظرا إلى أن البوطي ووالده يصران على التصوف السليم والانضباط بنصوص القرآن والسنة، شديد الحذر من التورط في البدع، فهما ينبهان دائما إلى ضرورة التفريق بين التصوف الذي لا يمكن أن يحيا الإيمان في القلب إلا به، والطرق الصوفية التي كثيرا ما تكون بؤرة لكثير من البدع. لذلك كان البوطي ووالده شديدا الكراهية للبدع التي تتسرب عن طريق، في كثير من الأحياء، وتترسخ في حياة كثير من الشيوخ والمريدين باسم التصوف أو تحت مظلته.(2)

(1) هذا والدي ص:98.
(2) نفسه ص:100.

وكان شديدا الاشمئزاز من أولئك الذين يجعلون من التصوف ركاما من الفلسفات الكلامية، يتحدثون عن الوجد والقبض والبسط، والفناء والبقاء، والأحوال، وهم عن الحقيقة ذلك كله بعيدون تائهون. وكثيرا ما كان يشبهها نهم بمن راح يصف للناس الخمرة ومذاقها ونشوتها، وهو لم يحصل منها على أي مذاق قط.[1]

الفرع الثاني: موقفهما من الرابطة وأصلها

لقد سميت الزوايا في البدء بالرباطات وهي مشتقة من رباط الخيل التي وردت في الآية الكريمة:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[2] ومن الرباط أيضا يقال: رابط الجيش في الثغر، أي أقام فيه للحماية و المدافعة، وسميت الإقامة في الثغور مرابطة، ومنها اشتهر في المغرب المرابطون والرباط في أول توجهه إلى ذكر الله عز وجل، فيتصور شيخه ويجعل من تصوره هذا فاتحة ذكره الله عز وجل، و يوصي هؤلاء الشيوخ مريديهم بهذا العمل على أنه ضرورة لا بد منها. ووجه ضرورته في نظرهم أن المريد لا يستطيع أن يستلهم ذكر الله عز وجل إلا إذا تصور الشيخ أولا، إذ أنه هو الذي يمكنه من دخول الحضرة الإلهية ذاكرا ومراقبا.[3]

هذه الرابطة، بهذا المعنى، كان الملا رمضان شديد الإنكار لها، وشديد الإنكار على من يدعون إليها من الشيوخ أو من يمارسونها من المريدين. و قد تحدث البوطي في أحد دورسه العامة عن هذه الرابطة وأوضح حرمة هذا التوجيه وهذا السلوك وبراءة التصوف من هذه الرابطة عند قدماء الشيوخ الطريقية وهي لم تكن تعني أكثر من حب المريد للشيخ، فهذه الرابطة كانت تقوم على تقديم محبة الشيخ على محبة الله عز وجل، لأنه كان في اعتقادهم أن المريد لا يصل أولا إلى محبة الله لأنه بعيد عن الله سبحانه وتعالى. رب العالمين رب كبير عظيم، والعبد ضعيف، فليس هناك تناسب وتجانس بين العبد وبين الله تعالى، لكن هناك تناسب بين المريد والشيخ، فبعدما يتعلق بالشيخ وتحصل محبته، بعدها الشيخ يرفع من

(1) هذا والدي ص:101.

(2) سورة الأنفال الآية:61.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص: 161 - 162.

البين وتبقى محبة الله، وهذا يختلف مع قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ }[1] كل الاختلاف فلا وجود لواسط بين العبد وربه حتى يتواصل معه.[2]

الفرع الثالث: مواقفهما من التثني في الذكر

ذهب البوطي ووالده إلى ما ذهب إليه جماهير العلماء من أن افتعال التثني ذكر الله محرم، وربما سمياه في كثير من الأحيان رقصا. والتثني هو أن يصغي الجمع الحاضر إلى بعض المنشدين. وما هي إلا دقائق حتى يهبوا جميعا قائمين، فيذكرون الله مع التثني والانضباط بالنظام الذي يسمى (الحضرة). وصفوة القول إن البوطي ووالده رحمه الله لم ينكرا القيام أثناء الذكر بحد ذاته، ولكن الإنكار في التثني والقفز المفتعلين، أي عن قصد وإرادة.[3]

الفرع الرابع: موقفهما من الشطحات

اتجه البوطي ووالده رحمه الله من قبله إلى إنكار هذه الشطحات، لأنها لا تتفق مع موازين القرآن الكريم والسنة وما يجب الإيمان به من مبادئ العقيدة الإسلامية.

هذه المسألة المعضلة الكبرى، التي جعلت كثيرا من المسلمين فريقين في موقفهم من التصوف. فهي التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو - أي جملة وتفصيلا - على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها، وتتقبل العبارات الموهمة بل الباطلة على أساس الثقة بقائلها أو بمن نسبت إليهم. وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق، متورط في خيف وظلم كبيرين.

أما الأول منهما فمتورط في ظلم التصوف، والجنوح عن الحق في حكمة الجائر عليه، وأما الثاني فمتورط في ظلم الشريعة والدين، إذا مضى يحملها أوزارا كلمات وعبارات ما هي منها في شيء، على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من تردادهم لهذه العبارات إلى

(1) سورة البقرة الآية:164.

(2) هذا والدي ص:101-102.

(3) نفسه ص:105.

أي فهم لمعانيها. وإنما يبتلعونها ابتلاعا بسائق من الثقة المجردة كما هي، تماما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ.(1)

فللشطح معنى خاص عند الصوفية فهو ترجمة اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرونا بالدعوى وهو مرتبط عندهم بالحال، الذي يعرفونه بما يرد على القلب من غير تعمد، لكن مدلوله وسع عندهم حتى خالط معنى الرقص وصار اللفظان يرتبطان للدلالة على حركة الجسم، منضبطة أو غير منضبطة. يصاحب ذلك السماع في صفرة تقع عندما يجتمعون في وقت فينشد لهم منشد أبياتا في المحبة وغيرها، هذه الرابطة، بهذا المعنى، كان الملا رمضان شديد الإنكار لها، وشديد الإنكار على من يدعون إليها من الشيوخ أو من يمارسونها من المريدين. وقد تحدث البوطي في أحد دورسه العامة عن هذه الرابطة وأوضح حرمة هذا التوجيه وهذا السلوك وبراءة التصوف من هذه الرابطة عند قدماء الشيوخ الطريقية لم تكن تعني أكثر من حب المريد للشيخ، فهذه الرابطة كانت تقوم على تقديم محبة الشيخ على محبة الله عز وجل، لأنه كان في اعتقادهم أن المريد لا يصل أولا إلى محبة الله لأنه بعيد عن الله سبحانه وتعالى. رب العالمين رب كبير عظيم، والعبد ضعيف، فليس هناك تناسب وتجانس بين العبد وبين الله تعالى، لكن هناك تناسب بين المريد والشيخ، فبعدما يتعلق بالشيخ وتحصل محبته، بعدها الشيخ يرفع من البين وتبقى محبة الله، وهذا يختلف مع قوله تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّا لِّلَّهِۗ} (2) كل الاختلاف فلا وجود لواسط بين العبد وربه حتى يتواصل معه.(3)

الفرع الثالث: مواقفهما من التثني في الذكر

ذهب البوطي ووالده إلى ما ذهب إليه جماهير العلماء من أن افتعال التثني ذكر الله محرم، وربما سمياه في كثير من الأحيان رقصا. والتثني هو أن يصغي الجمع الحاضر إلى بعض المنشدين. وما هي إلا دقائق حتى يهبوا جميعا قائمين، فيذكرون الله مع التثني والانضباط

(1) هذا والدي ص:109.
(2) سورة البقرة الآية:164.
(3) هذا والدي ص:101-102.

بالنظام الذي يسمى (الحضرة). وصفوة القول إن البوطي ووالده رحمه الله لم ينكرا القيام أثناء الذكر بحد ذاته، ولكن الإنكار في التثني والقفز المفتعلين، أي عن قصد وإرادة.[1]

الفرع الرابع: موقفهما من الشطحات

اتجه البوطي ووالده رحمه الله من قبله إلى إنكار هذه الشطحات، لأنها لا تتفق مع موازين القرآن الكريم والسنة وما يجب الإيمان به من مبادئ العقيدة الإسلامية.

هذه المسألة المعضلة الكبرى، التي جعلت كثيرا من المسلمين فريقين في موقفهم من التصوف. فهي التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو - أي جملة وتفصيلا - على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها، وتتقبل العبارات الموهمة بل الباطلة على أساس الثقة بقائلها أو بمن نسبت إليهم. وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق، متورط في خيف وظلم كبيرين.

أما الأول منهما فمتورط في ظلم التصوف، والجنوح عن الحق في حكمة الجائر عليه، وأما الثاني فمتورط في ظلم الشريعة والدين، إذا مضى يحملها أوزارا كلمات وعبارات ما هي منها في شيء، على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من ترداده لهذه العبارات إلى أي فهم لمعانيها. وإنما يبتلعونها ابتلاعا بسائق من الثقة المجردة كما هي، تماما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ.[2]

فللشطح معنى خاص عند الصوفية فهو ترجمة اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرونا بالدعوى وهو مرتبط عندهم بالحال، الذي يعرفونه بما يرد على القلب من غير تعمد، لكن مدلولة وسع عندهم حتى خالط معنى الرقص وصار اللفظان يرتبطان للدلالة على حركة الجسم، منضبطة أو غير منضبطة. يصاحب ذلك السماع في صفرة تقع عندما يجتمعون في وقت فينشد لهم منشد أبياتا في المحبة وغيرها،

فمنهم من يتواجد ويرقص، ومنهم من يصيح ويبكي، ومنهم من يغشاه شبه الغيبة عن إحساسه. وقد صرح كثير من الفقهاء بأن الشطح بدعة. ووضح أخرون أن البدعة تخص

(1) هذا والدي ص:105.
(2) نفسه ص:109.

الشطح المجرد الذي يتعاطاه إلا ناقص العقل ولا يصلح إلا النساء. وذهب المعتدلون منهم إلى تقييده بغلبة الحال منطلقين.

والشطح فيه دون هجم الحال ليس على طريقة الرجال واستثنوا من ذلك التقييد كالمبالغة مثل البكاء والأنين والعويل والتصفيق والاهتزاز والكرض والزفير والصياح وتقطيع الثياب والسقوط على الأرض. والشطح عند الصوفية تعبيرات الأعضاء وتجويزه كان بناء على كون أن جمهور الصوفية الطرقية اتفقوا عليه.(1)

فهذا الشطح لم يأمر به الله عز وجل ولا رسوله ﷺ، ولا أحد من الأئمة، بل قال الله عز وجل في كتابه: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}(2) و قال أيضا: {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (3) أي بسكينة ووقار، وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود، إنما الرقص والشطح لم يأمر الله به ولا رسول له ﷺ، ولا أحد من سلف الأمة، بل أمروا بالقرآن في الصلاة، والسكينة، ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذلك الحال بسبب مشروع، كسماع القرآن الكريم ونحوه، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم، فأما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به، مع عماه بأنه يوقعه فيها ولا يصلح له، مثل شرب الخمر مع علمه أنها تسكره وإذا قال: ورد علي الحال وأنا سكران، قيل له: إذا كان السبب محظورا لم يكن السكان معذورا. فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقا فهو مبتدع، ضال من جنس خضراء العدو، وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى والمشركين والصابئين في بعض ما لهم من الأحوال ومن كان كاذبا فهو منافق ضال. قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}(4) قال: «أخلصه وأصوبه، قيل له يا أبا علي أما أصوبه؟ وما أخلصه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص أن يكون الله، ولصواب أن يكون على السنة. وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف، ثم

(1) التصوف والمجتمع لعبد اللطيف الشاذلي الطبعة:1 مطابع سلا سنة: 1989 المغرب، ص: 96.
(2) سورة لقمان الآية:18.
(3) سورة الفرقان الآية:63.
(4) سورة الملك الآية:2.

يسجد بعضهم البعض على وجه التواضع فهل هذا من السنة؟ أو فعله الشيوخ الصالحون؟ فأجاب: لا يجوز السجود لغير الله واتخاذ الضرب بالدفع والغناء والشطح عبادة من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة، ولا أكابر شيوخها، وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين، وقد أنشد شيخ الإسلام. أبيات شعر في شطح فقال:

أنكروا رقصا وقالوا حرام ... فعليهم من أجل ذاك سلام.[1]

ويقول القشيري: «فإن ورد عليه وراد حركة ولم يكن فيه فضل قوة فبمقدار الغلبة يعذر فإذا زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون فإن استخدام الحركة مستجلبا للوجد من غير غلبة ولاضرورة لم يصح فإن تعود ذلك يبقى متخلفا لا يكاشف بشيء من الحقائق فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه وفي الجملة أن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله مزيدا كان أو شيخا.»[2]

ذكر ابن الجوزي عن ابن عقيل الذي قال: «عبرت الصوفية عن الحرام بعبارات غيروا لها الأسماء مع حصول المعنى، فقالوا في الاجتماع على الطيبة والغناء والخنكرة: أوقات، وقالوا في المردان: شب وفي المعشوقة أخت، وفي المحبة: مريدة، وفي الرقص والشطح والطرب: وجد، وفي مناخ اللهو والبطالة رباط. وهذا التغيير للأسماء لا يباح.»[3]

والنابلسي بحكم ما أسنده الله إليه بز عمه من جماعة أهل الحق، والدفاع عن الدين مستميتا على أي حال شطحوا أو حرفوا. والشطح من لوازم السلوك المؤدي إلى القول بالوحدة، لأنه يحدث في حالة لا يرى فيها السالك إلا الله ومن تم يتدرج حتى يقول بالوحدة. ويؤكد النابلسي في كلامه أن السالك مهما رأى وانكشف له من الأمور التي لم يطلع عليها أحد من أبناء جنسه الصوري والمعنوي، فإن سره لن يغلب، وستره لن ينهتك، ما دام قد رزق البيان بلسان الشرع المحمدي. ومهما بالغ في البيان فهو كذلك، لأنه دخل في حد الشرع، فهو محفوظ من الزلل، وأن زل فهو مأخوذ بيده، لخروج كلمات لابسة لباس الشرع المحمدي. وإنما تأتي الفتنة من الانسياق وراء الإلهامات، وإغفال لسان الشرع المحمدي، فإذا أراد

(1) فتاوى ابن تيمية كتاب التصوف مكتبة المعارف الطبعة:2 سنة:1981 الرباط ج/2 ص:605.

(2) الرسالة القشيرية ص 396.

(3) تلبيس إبليس لابن الجوزي تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، الطبعة:1 المكتبة العصرية سنة: 2001بيروت ص: 335.

الله أن يفتن عبدا أخرج له شريعة من الإلهية يتكلم بها، فلا يفهم كلامه، وإن كان جميع ما يقوله صوابا وحقا. والنتيجة: ألا يقبل كلامه، لأنه تكلم بغير لسان الشرع، فيقع عليه اللوم والعتاب ويسمى ذلك هتكا للشرع.[1]

فالشطحات التي نقرأها في الفتوحات المكية لابن العربي، والتي تخالف في ظاهر مدلولها أصول العقيدة ومبادئها، غير مقرة بتلك المعاني التي تدل عليها قط. ومن ثم فإنه لا يجوز قراءتها فضلا عن تبنيها والإيمان بها، ولو على سبيل الإغماض والتسليم. وبوسع القارئ أن يرى قبل هذه الشطحات التي يقرؤها في كتاب الفتوحات، أو بعدها، ما يناقضها كل المناقضة، ويتفق كل الاتفاق مع ما عليه سلف هذه الأمة، وما هو متفق عليه كل الاتفاق مع القرآن والسنة.

ولكن نعود إلى ما قرره من قبل الإمام ابن حجر الهيثمي في فتواه الحديثة، من حرمة قراءة الفتوحات، وما شابهه كفحوص الحكم... لا اتهاما للمؤلف، ولكن سدا للذريعة والتشويش والافتتان بظاهر ما تدل عليه تلك الشطحات من الكفريات. وكذلك بقية الذين فاهوا أو نقل عنهم بعض الشطحات، كأبي يزيد البسطامي الذي نقل عنه قوله: ما في الجنة إلا الله، وقوله: سبحانه ما أجل شأني، وكابن الفارض في بعض ما جاء على لسانه في تائنيته الكبرى.[2]

وأقول: وقد اتفق كل من ترجم للشيخ ابن العربي، أنه قد دس عليه في كتابه الفتوحات وغيره دس عليه الباطنيون ما شاؤوا أن يدسوا. أكد ذلك ابن المقري في نفح الطيب، وابن العماد في شذرات الذهب، والشعراني في اليواقيت والجواهر، وحاجي خليفة في كشف الظنون. وهذا من أهم ما يقتضي الإعراض عن الفتوحات ونحوه. ورحم الله من قال: خذ ما صفا ودع ماكدر.[3]

يقول البوطي: «وإنما يخرجك من أشكال شطحاتهم، أن نتذكر الاحتمالات الواردة والممكنة عقلا، فتنجو بذلك من حصرك لنفسك بدون موجب في زاوية واحدة هي زاوية

(1) التصوف الإسلامي ص:373-374.
(2) هذا والدي ص:109-110.
(3) السلفية للبوطي ص:204.

التكفير والعياذ بالله، ثم عليك بعد ذلك أن تبتعد عن تلك الشطحات ولا تقف عندها، موقنا بأنها، في ظاهر ما تدل عليه، كفر، مستغنيا بذلك عن تكفير أشخاص عرفوا بالصلاح والتقوى، ولا تعلم كيف آلوا إلى الله.»[1]

المبحث الرابع: الفكر الصوفي والكرامات بين الإثبات والتلبيس

المطلب الأول: الفكر الصوفي

نقصد بالفكر الصوفي ذلك التراث الضخم الذي دونه الصوفية عبر العصور المتعاقبة، بصرف النظر عن كونه أصيلا من انتاج المتصوفة أنفسهم أو كونه فكرا وافدا اقتبسوه من ثقافات الأمم الغابرة.

وسواء كان هذا الفكر موضع تطبيق جميع طوائف الصوفية أم عند بعضهم وسواء كان هذا الفكر موضع تطبيق جميع طوائف الصوفية أم عند بعضهم فالصوفية يبنون منهجهم الفكري على التسليم والتصديق، مقابل منهاج الفقه القائم على البحث والتحقيق. ويرون أن الاعتقاد أصل في كل خير والانتقاد أصل في كل شر، وأثرت في كثير منهم أقوال مثل اعتقد أو لا تعتقد. وينطلق منهجهم هذا من منطلق نظري بسيط هو كون العقل لا يقبح ولا يحسن، وأن العقل قاصر عن إدراك كل المدركات. وذلك أن علوم الحقائق أمور خصية المدارك بعيدة الفور كأنها ليست من هذا العلوم الظاهر، فمن أراد أن يفهمها بالعقل كما يفهم أمور الدنيا التي هي معقولة فقد أراد منها ما ليس في قوتها كما أنه لا يقدر أن يفهم أمور النوم مثلا، أو أمور الأخرة من الجنة والنار وغير ذلك بعقله، كذلك الحقائق. كما ينطلق من منطلق عقلي هو كون المناظر لهم إما منهم فهو مأمور بعدم الانتقاد، أو من غيرهم، وليس له استطاعة مناظرتهم.[2]

الفرع الأول: السماع الصوفي

السماعات المشتملة على الغناء و الصفارات و الدفوف المصلصلات فقد اتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك كالغناء والتصفيف

(1) هذا والدي ص:111.
(2) التصوف والمجتمع ص:101.

باليد، والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك فهذا وإن كان فيه ما هو مباح، وفيه ما هو مكروه، وفيه ما هو محظور، أو مباح للنساء دون الرجال فلا نزاع بين أئمة الدين إنه ليس من جنس القرب، والطاعات والعبادات و لم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين يحضرون مثل هذا السماع،لا بالحجاز، ولا مصر، ولا الشام، ولا العراق، ولا خرسان لا في زمان الصحابة، والتابعين. لكن حدث ذلك فكانت طائفة يجتمعون على ذلك، ويسمون الضرب بالقضيب على الجلاجل نحوه « التغيير». فالسماع السني هو سماع القرآن والنبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين، قال عز وجل {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩}[1] و قال تعالى: { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ} [2] وقال أيضا: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[3] وهذه السماع هو الذي شرعه الله المؤمنين في الصلاة وخارج الصلاة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ والناس يستمعون. وأما الإسماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها، فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وطائفة أخرى فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع، وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه، والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من أحداث الزنادقة، لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان، ولا مع مصلصلات وشابات، وكانت أشعاره مرققات.فأما السماع المشمل على منكرات الدين، فمن عده من القربات استتيب، وإن كان متأولا جاهلا بين له خطأ تأويله، وبين له العلم الذي يزيل الجهل. هذا من كونه طريقا إلى الله. وأما كونه محرما على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله، فهذا فيه تفصيل، فأما المشتمل على الشبابات والدفوف المصلصلة، فمذهب الأئمة الأربعة على تحريمه.[4]

(1) سورة مريم الآية:58.
(2) سورة المائدة الآية:85.
(3) سورة الأنفال الآية:2.
(4) فتاوي ابن تيمية كتاب التصوف، ص: 531-532-533-534.

فالسماع الذي شرعه الله لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وتابعيهم يجتمعون عليه الصلاح قلوبهم، وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله تعالى وهو سماع النبيئين والمؤمنين قال تعالى: { وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[1] وقال أيضا عز وجل { ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}[2] فهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر والعشائين وغير ذلك. وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري، يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون.[3]

وسماع الأشعار بالألحان الطيبة و النعم المستلذة إذا لم يعتقد المستمع محظورا - أي ممنوعا منه - و لم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجز في هواه و لم ينخرط في سلك لهوه مباح في الجملة ولا خلاف أن الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان هذا ظاهر من الأمر، ثم ما يوجب للمستمتع توفر الرغبة على الطاعات وتذكير ما أعد الله تعالى لعباده المتقين من درجات ويحمله على التحرز من الزلات ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات مستحب في الدين ومختار في الشرع وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر وإن لم يقصد أن يكون شعرا.[4]

يقول ابن الجوزي: «السماع يجمع شيئين، أحدهما: أنه يلهي القلب عن التفكير في عظمة الله والقيام بخدمته، والثاني: أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استقائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجددات، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحث على الزنا، فبين الغناء والزنا تناسب، من جهة أن الغناء لذة الروح، والزنا أكبر لذات النفس. وهذا لأن الالتذاذ بشيء يدعو إلى التذاذه بغيره خصوصا ما يناسبه، ولما يئس إبليس أن يسمع من المتعبدين شينا من الأصوات المحرمة

(1) سورة الأعراف الآية:204.

(2) سورة الزمر الآية:17.

(3) فتاوي ابن تيمية كتاب التصوف ص:557-558.

(4) الرسالة القشيرية ص:328.

كالعودة نظر إلى المعنى الحاصل بالعودة فدرجه في ضمن الغناء بغير العود وحسنه لهم وإنما مراده التدريج من شيء إلى شيء.»(1)

روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: « أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به»(2) ومن إنشاد العرب قول أهل المدينة عند قدوم رسول الله ﷺ:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ومن هذا الجنس كانوا ينشدون أشعارهم بالمدينة، وربما ضربوا عليه بالدف عند إنشاده. فقد بأن بما ذكرنا ما كانوا يغنون به وليس مما يطرب ولا كانت دفوفهن على ما يعرف اليوم، ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب إلى ذكر الأخرة ويسمونها الزهديات.

ومن الأشعار أشعار ينشدها النواح، يثيرون بها الآخرون والبكاء، فينهى عنها لما في ضمنها. فأما الأشعار التي ينشدها المغنون المتهينون للغناء ويصفون فيها المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ويثير كامنها من حب اللهو، وهو الغناء المعروف في هذا الزمان مثل قول الشاعر:

ذهبي اللون تحسب من وجنيته النار تقتدح
خوفوني من فضيحته ليته وافي وأفتضح

فسماع هذه الألحان كلها تخرج سامعها من حيز الاعتدال، وتثير حب الهوى، ولهم شي يسمونه البسط يزعج القلوب عن مهل، ثم يأتون بالنشيد بعده فيعجعج القلوب، وقد أضافوا إلى ذلك ضرب القضيب والإيقاع به على وفق الإرشاد والدف بالجلاجل، والشبابة النائبة عن الزمر، فهذا الغناء المعروف اليوم. روي عن إسماعيل بن إسحاق الثقفي: «أنه سئل عن استماع القصائد فقال: أكرهه، هو بدعة، ولا يجالسون. وروي عن عبد الله بن

(1) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص: 213-214.
(2) الأم، للشافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط:1 2009ج/9 ص:340

أحمد بن حنبل أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني. فهذه المرويات كلها دليل على كراهية الغناء والاستماع إليه.(1)

وقد جعل الصوفية الطرقية، الاستماع إلى الغناء والأشعار الملحنة، والأصوات الموقعة، طريقا إلى حب الله أو إلى معرفته، وذلك لما في الغناء والألحان من الإثار وتحريك الوجد، والذهاب مع الخيال كل مذهب، وقد سئل بعض الصوفية عن المشايخ الذين لقيهم كيف كان يجدهم وقت السماع؟ فقال مثل قطيع العتم و إذا وقع وسط الذئاب، ويظهر أن التحرك و الصياح وقت السماع كان مظهرا مألوفا ونتيجة طبيعية لهذا السماع، فقد سئل الجنيد: أكنت تسمع هذه القصائد وتحضر مع أصحابك في أوقات السماع وكنت تتحرك والآن فأنت هكذا ساكن الصفة، فقرأ عليهم الجنيد هذه الآية: قال عز وجل {وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ}(2) وقد قسموا هذا السماع هذا السماع بالنسبة للخاصة على ثلاثة أوجه: وجه للمريدين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة والثاني للصدقين يطلبون الزيادة في أحوالهم، والثالث لأهل الاستقامة من العارفين.(3)

فهم لا يعترضون ولا يتأبون على الله فيما يرد على قلوبهم حين السماع من الحركة والسكون ومما يدل على أن السماع له اعتبار في سلوك الصوفية، أننا نجد معظم المؤلفين في التصوف والمراجع الأساسية فيه، تهتم به فتعقد له بابا أو كتابا خاصا، ضمن أبواب المؤلف التي تكون ضمن بقية كتابه. مثل ما فعل القشيري في رسالته والسهر وردي البغدادي وقد لبس الصوفية الباطلة على الناس في شرعية الوصول إلى الله عن طريق هذا السماع واعتباره عبادة من العبادات التي تتبع في الطريق إلى ولاية الله، فاستدلوا على شرعيته بمثل قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ} (4) فإن سماع الصحابة و التابعين لم يكن على شاكلة سماع الصوفية، بل كانوا كما قال فيهم القرآن الكريم { نَّمَا ٱلْمُومِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

(1) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص:215-217-218.

(2) سورة النمل الآية:90.

(3) قطر الولي على حديث الولي للشوكاني تحقيق إبراهيم إبراهيم هلا، الطبعة:1 دار الكتب الحديثية 1979م القاهرة، ص: 161.

(4) سورة الزمر الآية:17.

عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] فلم يكن هذا السماع كسماع الصوفية، إنما كان فيه من السكينة وحسن الاستماع ما يضفي على المجلس الاستماع هيبة ووقار.[2]

ومن المعلوم أن بعض صوفية المشرق وحتى بلاد المغرب، كانوا يجتمعون في الزوايا لسماع المنشد (القوال) الذي ينشد الأشعار بصوت جميل فيثر فيهم الجذب والوجد، وبدفعهم إلى التصفيف الإيقاعي، والرقص، وتمزيق الثياب. وقد تجزأ بعض أدعياء التصوف على تزيين المرد والنظر إليه خلال مجلس السماع، زاعمين أن ذلك يدلهم على جمال الخالق، لكن معظم الصوفية قد أنكروا هذا السماع وحملوا على أصحابه حملة شعواء وأقصد هنا الصوفية السنية السليمة. ذكر ابن تيمية أن بعض المتصوفة أرادوا تحريك عواطفهم وما في قلوبهم بأنواع السماع، فأقبلوا على سماع الأقوال والأشعار في أمكنة مخصصة، وبحضور الخلان والمشايخ الذين كانوا يحافظون على هذه المجالس من الانحرافات. لكن قامت بعدهم فئات توسعت في هذه المجالس فظهرت فيها بعض المعاصي ثم درج الحال بالبعض إلى أنواع الفسوق والكفر، عندما أباحوا لأنفسهم التواجد على سماع التعاقد التي تضم أشعارا تمجد الكفر والإيحاد.[1]

لذلك كان ابن تيمية يحذر من المعازف التي تسكر النفوس، مهما كانت عفيفة وتحملها على الشرك وارتكاب الفواحش وإتيان المظالم. ويروى ابن تيمية حادثة حصلت معه، في شبابه تدل على التأثير السيئ للسماع يقول: «وكنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة، فجاؤوا بمكان وأرادوا أن يقيموا سماعا وأن أحضر معهم فامتنعت من ذلك، فجعلوا لي مكانا منفردا قعدت فيه، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده ويقول: يا فلان قد جاءك نصيب عظيم يقال خذ نصيبك. فقلت في نفسي ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا: أنتم في حال من هذا النصيب، فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله فإني لا أكل منه شيئا.»[4]

(1) سورة الأنفال الآية:2.

(2) قطر الولي على حديث الولي ص:163.

(1) ابن تيمية والصوفية ص:110.

(4) فتاوي ابن تيمية ج/10 ص: 418-419.

فابن تيمية يرى أن سماع الآيات هو السماع الذي شرعه الله، وهو ماكان عليه السلف من الأمة وأهل العلم والمعرفة. وفي هذا السماع صلاح القلوب، وزكاة النفس وقد مدح الله أهل هذا السماع بما حصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين قال عز وجل: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَنْ يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ}[1] والرسول ﷺ لم يأذن للصالحين والعباد والزهاد أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة مع التصفيق أو الضرب على الدفوف أو بالقضيب... لكنه رخص في أنواع من اللهو في الأعراس والأفراح، كما رخص للنساء باستعمال الدف والتصفيف والغناء في هذه المناسبات ليعلم المشركون أن في ديننا فسحا. وقد سمع الرسول ﷺ إلى إنشاد الصحابة ودعا لهم، يذكر مؤرخوا السيرة النبوية أن المسلمين عندما كانوا يحفروا الخندق حول المدينة لمجابهة عدوان الأحزاب كانوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله ﷺ «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرين» [2]

فالصوفية قد التبس عليهم الأمر، وذلك أنهم استدلوا باستماع الرسول ﷺ لشعر كعب بن زهير وحسان بم ثابت وغيرهم في الأحوال العادية، لا في حال العبادة، واستماعه لبعض الغناء البريء من بعض الجوارح، على إباحة الغناء وسماه وانشاد القصائد وتوقيعها، وسط التصفيق والحركات الشاذة، كطريق من طرق العبادة والذكر. وقد انتقل القشيري من سماع الرسول ﷺ لقصيدة كعب بن زهير وغيرها، فإن استماع الرسول ﷺ لهذه الأشياء كما قلنا، كان في غير التعبد، فكيف يستدلون على إباحته في العبادة، أو جعله طريقا من طريق الذكر والوصول.[3]

وأهل السماع على ثلاث طبقات: أبناء الحقائق يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة الحق سبحانه لهم، وضرب يخاطبون الله تعالى بقلوبهم بمعاني ما يسمعون فهم مطالبون فيما يشيرون به إلى الله تعالى، وثالث هو الفقر مجرد قطع العلاقات من الدنيا والآفاق يسمعون

(1) سورة الزمر الآية:22.

(2) كشف القناع المسدول في حكم السماع المقبول لمحمد الخطيب الطبعة:1 دار الجيل 1973 بيروت، ص:17.

(3) قطر الولي للشوكاني، ص: 164.

بطيبة قلوبهم وهؤلاء أقرب إلى السلامة.[1] وقال أبو عثمان الحيري: «السماع على ثلاثة أوجه فوجه منها للمريدين و المبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة وتخشى عليهم في ذلك الفتنة والمرآت، والثاني للصدقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم، والثالث لأهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء يختارون على الله تعالى فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون.[2]

الفرع الثاني: الكشف عند الصوفية

الكشف في اللغة رفع الحجاب، وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا أو شهودا. لقد رأي الفلاسفة، وفي طليعتهم ابن رشد أن الوصول إلى الحقيقة يتم عن طريق الفلسفة والأدلة العقلية والاعتماد على المنطق، لكن بعض الصوفية يرون أن الكشف والفيض الإلهي، اللذان يأتيان نتيجة للرياضة والمجاهدة، يعطيان أكثر مما يعطي النظر. فالغزالي يدعو إلى الإيمان بالمكاشفات وتصديقها، لأن الذي يؤمن بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي إنما يضيق مجال الإيمان. وقد رسم الغزالي طريق الكشف، وذلك بمجاوزة العقبات، وتحصيل المقامات، وإخلاص النية، وإخراج حظوظ النفس، وتصفية القلب أما ابن تيمية فأنه انتقد الذين يدعون إلى ترك العقل والشرع بحجة أن الكشف يناقض صريح العقل، ويعلن بأن الكشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وأنهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمجازات العقول لا بمجالات العقول، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ﷺ ما يناقض صريح العقول. ولا يخفي ابن تيمية موافقته على المكاشفات التي تصدر عن الصوفية الصادقين السنيين: قد ثبت أن الأولياء الله مخاطبات ومكشفات لكنه يحذر الولي من الاعتماد على كشف وإلهامه وما يلقي في قلبه، فالمحدث الملهم المكاشف من هذه الأمة يجب عليه أن يزن ذلك على الكتاب والسنة، فإن وافق ذلك صدق كما ورد عليه، وإن خالف لم يلتفت إليه.[3]

---

(1) الرسالة القشيرية ص:335.

(2) نفسه ص:334.

(3) ابن تيمية والصوفية، ص: 148-149.

ثم إن قوما من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك، باختلاف تعليمهم في إمامة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، ثم إن هذا الكشف قد يحصل لصاحبه الجوع والخلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحر وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، فيما سبق، وملأوا الصحف منه مثل الهروي، في كتاب المقامات له وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ثم ابن العفيف...

أما سلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك، إنما همهم الإتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك أعراض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. لذلك منعوا الكشف من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الإتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد. [1]

يقول الغزالي رحمه الله: «أعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارضا بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به.» [2]

قال الشوكاني: «وفيه دلالة على جواز اطلاع الولي على المغيبات باطلاع الله تعالى إياه، ولا يمنع من ذلك ظاهر قوله تعالى: { عَٰلِمُ اُ۬لْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَداً اِلَّا مَنِ اِرْتَضيٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدا} [3] قال: الوصف المستثنى للرسول هنا إن فيما يتعلق بخصوص كونه رسولا فلا مشاركه لأحد من اتباعه فيه إلا منه، و إلا فليحتمل ما قال، و العدم عند الله عز وجل.» [4] ويضيف قائلا: «إذا عظم قدر الولي، فلا شك أن الله

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص:451-455-459.

(2) إحياء علوم الدين ج/3 ص:25.

(3) سورة الجن الآتان:26-27.

(4) قطر الولي على حديث الولي ص:520.

سبحانه قد أحبه وكان سمعه وبصره ويده ورجله، ووعده أنه إذا سأله أعطاه، وإذا استعاذ أعاده.»[1]

لقد وصف الله تعالى سيدتنا مريم عليها السلام بأنها صديقة، قال تعالى: { وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ}[2] ومن المعروف أن الله عز وجل لم يبعث رسولا إلا رجلا قال تعالى: { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالا يُوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنَ اَهْلِ اِلْقُرِيٓۖ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِے اِلَارْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُلذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ وَلَدَارُ اُلَاخِرَةِ خَيْر لِّلذِينَ اَتَّقَوْاْۖ اَفَلَا تَعْقِلُونَۖ}[3] فمريم إذن صديقة وليست نبية ولا مرسلة، ومع ذلك، ذكر القرآن الملائكة خاطبتها قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ اِلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اَللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَة مِّنْهُ اُسْمُهُ اُلْمَسِيحُ عِيسَي اَبْنُ مَرْيَمَ وَجِيها فِے اِلدُّنْيا وَالَاخِرَةِ وَمِنَ اَلْمُقَرَّبِينَۖ }[4] إذن فمن الممكن شرعا أن يكشف الله لغير الأنبياء والرسل عن الملائكة بحيث يسمع ويرى ملكا، هذه الحالة يسميها الصوفية كشفا، ونجد نماذج له في حياة الصحابة، ونجد تاريخ التصوف الإسلامي المحقق زاخرا بالحديث عن واقعات فيه.[5]

إلا أن البعض من الصوفية وقع في الغلط إذ أن بعضهم يعتبر الكشف أصلا زائدا على الكتاب والسنة، يمكن أن يثبت به حقائق غيبية زائدة على ما ذكر في الكتاب والسنة، وبعضهم يعتبر أن كل ما قال صوفي في هذا المجال واجب التصديق، فكأنها نبوة جديدة، أو كان غير النبي ﷺ يمكن أن يكون معصوما، وفي هذا غلو. كما يربط الصوفية بين تصديق الناس في أمر الكشف وبين التسليم لهم في كل أمر، دون التحقيق من الحكم الشرعي فيه، وبالتالي نجد الكثير من أتباع الشيوخ يتابعون شيوخهم، وكأن شيوخهم معصومون. كما يربط الصوفية بين الكشف وترك التكليف، فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب سقط عنه التكليف، فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك فهم يستشهدون بقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّيٰ يَاتِيَكَ اَلْيَقِينُۖ}.[6] و يروي البوطي عن الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه بينما كان ذات يوم جالسا في محرابه يذكر الله و يراقبه، إذا سمع هاتفا يقول له: يا عبد القادر،

(1) قطر الولي على حديث الولي ص:521.

(2) سورة المائدة الآية:77.

(3) سورة يوسف الآية:109.

(4) سورة آل عمران الآية:42.

(5) تربيتنا الروحية لسعيد حوى، الطبعة: 4 دار السلام 1995 القاهرة، ص: 163.

(6) سورة الحجر الآية:99.

أبشر، فقد أسقطت عنك التكليف، و لما صاح الشيخ أخذ يفكر في صاحب هذا النداء، وفي مدى احتمال إسقاط الله الأحكام التكليفية عن أحد من عباده قبل الموت، على ضوء ما يدل عليه كل من القرآن والسنة، وكان الشيخ عبد القادر عالما جليلا وفقيها متمكنا. فصاح الشيخ قائلا: اخسأ، فقد عرفتك أيها الملعون. قال فعاد إليه النداء يقول: لولا علمك بالشريعة لأضللتك، وكم من شيخ مثلك جاهل بها أرديته في أقصى أودية الضلال.(1)

فالآية السابقة الذكر يكون اليقين فيها هو الموت بدليل أن رسول الله ﷺ بقي يعبد ربه حتى مات. فالكشف ممكن، وهو ما يصادفه السالك إلى الله، وهو من مظاهر الله وابتلائه، ولكننا جميعا مقيدون بالنصوص، والكشف لا تثبت به العقيدة ولا يزاد بها النصوص، ولا تتعبد به الأمة ولا تكلف الأمة بتصديق أصحابه.(2)

إذن فلا بد للولي أن يكون مقتديا في أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة، وأن ذلك هو المعيار الذي يعرف به الحق، فمن ظهر منه شيء مما يخالف هذا المعيار فهو عليه رد، ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنه ولي، فإن أمثال هذه الأمور تكون من أفعال الشيطان أو الشياطين، كما نشاهده في الذين لهم تابع من الجن.(3)

الفرع الثالث: الخلوة والعزلة عند الصوفية

إن التصوف الإسلامي بدأ في الأساس كحركة مال إليها نفر من المسلمين خوفا من الإغراءات الدنيوية، وسعيا للفوز بالأخرة والاقتداء بالمثال الأعلى النبي محمد ﷺ ومعظم صحبه من بعده. لكن لا يعني هذا هجر الدنيا، والقعود عن العمل، فهذا السلوك مما لا يوافق الإسلام، ولا يتناسب معه حيث من واجب المسلم أن يعد للدنيا عدتها إلى جانب تزويده للأخرة، كما أن الإسلام دعا إلى الوسطية والاعتدال.

ومن المعروف أن معظم الصوفية يلجؤون إلى الخلوات لتطهير النفس من آفاتها. وكثيرا ما فاضل مشايخهم بين العزلة والخلطة، لكن جمهور يقر بأن العزلة ضرورية للسالك في ابتداء أمره، حتى إذا صفا باطنه، وزكي نفسه، ونقى روحه، انطلق يخالط الناس ليفيدهم

(1) هذا والدي ص:107.

(2) تربيتنا الروحية لسعيد حوى، ص: 166.

(3) لطائفة المنن لابن عطاء الله الإسكندري تحقيق خالد عبد الرحمان، الطبعة:1 دار البشائر 1992 دمشق، ص: 24.

وينشر بينهم ما أضافه الله عليه من علوم ومعارف لا سيما أن الخلطة ساعتئذ لا تضره. وقد ظهرت طريقة صوفية سميت بالخلوتية لحرص مشايخها على إدخال المريد خلوة، قد تطول أو تقصر، حيث يصبح أهلا لنيل الإجازة. وقد استند أنصار الخلوة إلى قوله تعالى: {إِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَة} [1] وإلى خلوة رسول الله ﷺ، قبل البعثة في غار حراء.[2]

فهذه الطائفة الذين يجعلون الخلوة أربعين يوما ويعظمون أمر الأربعين ويحتجون فيها بأن الله وعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وقد روي أن موسى عليه السلام صامها، وصام المسيح عليه السلام أيضا أربعين الله تعالى وخوطب بعدها فيقولون يحصل بعدها الخطاب، والتنزيل، كما يقولون في غار حراء حصل بعده نزول الوحي. وهذا غلط فإن هذه ليست من شريعة محمد ﷺ بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت والمسلمون لا يستبتون، وكما حرم في شرعه أشياء لم تحرم في شرع محمد ﷺ فهذا تمسك بشرع محمد ﷺ فهذا تمسك بشرع منسوخ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة. فمن سلك هذه العبادات أتته شياطين وحصل له تنزيل شيطاني، وخطاب شيطاني، وبعضهم يطير به شيطانه قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ }[3] كثير منهم لا يجد للخلوة مكانا و لا إيمانا بل يأمرون الإنسان أن يخلو في الجملة.[4]

ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة، ولهم تنزلات معروفة، كما يأمرون بالجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حود ولا شرعية، بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وهذه الخلوات يقصدها أصحابها في أماكن التي ليس فيها آذان ولا إقامة ولا مسجد يصلي فيه الصلوات الخمس، إنما مساجد مهجورة وإما غير مساجد مثل الكهوف والغيران التي في الجبال، والمقابر لا سيما قبر من يحسن به الظن، ومثل المواضيع التي يقال إن بها أثر نبي أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية. أما لابن عجيبة رأي آخر في الخلوة فهو يعتبرها حفظ للقلب وصونه من الرياء والمداهنة و

(1) سورة البقرة الآية:50.

(2) ابن تيمية والصوفية ص: 99.

(3) سورة الجاثية الآيتان: 17-18.

(4) فتاوي ابن تيمية كتاب التصوف، ص: 394-395.

غيرها من الأمراض. يقول: «أعلم أن في الخلوة عشر فوائد: الأولى السلامة من آفة اللسان فإن من كان لا يتكلم، ثانيها حفظ البصر والسلامة من آفات النظر، فإن كان معتزلا عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها. قال تعالى { مُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْر وَأَبْقَىٰ}[1] ثالثها حفظ القلب وصنه من الرياء والمداهنة من الأمراض.

رابعها الحصول على الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف للعبد وكماله، وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ «ازهد في الدنيا يبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس.» [2]

خامسها السلامة من صحبة الأشرار، ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم قال ﷺ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمل صاحب المشك وكير الحديد لا يمك من صاحبه الملك: إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريا خبيثة.»[3]

سادسها التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر. سابعها وجود حلاوة الطاعات. وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره، وهذا مجرب صحيح. ثامنها راحة القلب والبدن، تاسعها صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات. عاشرها التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة.[4]

يقول الشوكاني: «ولا يتم قرب العبد من الحق، إلا ببعده من الخلق فهذا إنما يكون فيمن لانفع فيه للعباد. أما من كان ينفعهم بعلمه، أو بموعظته أو بجهاده، أو بإنكار المنكرات أو بالقيام فيهم بما أوجب الله على مثله القيام به، فهذا يكون قربه من الخلق أقرب إلى الحق، وهو مقام الأنبياء، ومقام العلماء الذين أخذ الله عليهم البيان للناس».[5]

---

(1) سورة طه الآية:129-130

(2) رواه ابن ماجة في سننه تحقيق فؤاد عبد الباقي دار الفكر لبنان كتاب الزهد في الدنيا رقم الحديث:4100 ج/2 ص:1373-1374.

(3) رواه البخاري في صحيحه كتاب البيوع باب العطار وبيع المسك رقم الحديث:2101 ج/2 ص:18.

(4) ايقاظ الهمم لابن عجيبة، ص: 39 40--41.

(5) قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص: 418.

والخلوة والعزلة من المجاهدات العلمية التي من شأنها أن تهيئ السالك لأحوال الوجد والقناعة والمعرفة لأنها في رأيهم تبديل الخصال المذمومة والاتصاف بالكمال الخلقي في أسمى صوره، فهي صفة أهل الصفوة، ومن أمارات الوصلة، وقد جعلوها ضرورية للمريد في ابتداء أمره، فهي في مقدمة الطريق الموصل إلى الله أو الموصلة إلى الإيمان والمجددة له.(1)

ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده لكيلا يستهويه الشيطان لوساوسه ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرده ليكوم بناء أمره على أساس محكم والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة فالتأثير لتبديل الصفات لا للثنائي عن الأوطان ولهذا قيل من العارف؟ قالوا كائن بائن يعني كائن مع الخلق بائن عنهم بالسر. قال ذو النون: لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة. وقال أيضا، ليس من احتجب عنهم الله.(2)

وينبغي أن تكون العزلة عن البشر لا عن الخير، والعزلة عن البشر واجبة على كل حال. وأما تعليم الطالبين وهداية المريدين، فإن عبادة العالم وإن من تغفيل بعض العلماء إيثاره للتنقل بالصلاة والصوم، عن تصفية كتاب أو تعليم علم ينفع لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد نفعه. وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفة الشيطان من ذلك المعنيين: أحدهما: حب البطالة لأن الانقطاع عندها أسهل. والثاني: الحب المدحة فإنها توسمت بالزهد فكان يميل العوام إليها أكثر، فعليك بالنظر في الشرب الأول، فكن مع الشرب المقدم، الرسول ﷺ وأصحاب رضي الله عنهم فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المزهدين، من الانقطاع عن العلم والانفراد عن الخلق؟ وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر؟ إلا أن ينقطع من ليس بعالم يقصد الكف عن الشر، فذاك في مرتبة المحتمي يخاف شر التخليط، فأما الطيب العالم بما يتناول فإنه ينتفع بما يناله.(3)

وكان خيار الأمة من السلف يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالا بالعلم والتعبد إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة ولا عيادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة البطالين. وقد لبس إبليس على جماعة

(1) قطر الولي على حديث الولي ص:167.

(2) الرسالة القشيرية ص:103-104.

(3) صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق ناجي وعلي الطنطاوي طبعة دار المنار 1991 جدة ص: 65-66.

من المتصوفة، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان يبيت وحده ويصبح وحده قاته الجمعة وصلاة الجماعة ومخالطة أهل العلم، وعمومهم اعتزل في الأربطة ففاتهم السعي إلى المسجد وتوطنوا على فراش الراحة وتركوا الكسب.[1]

وقد اختلف الشيوخ في نوع الأعمال المفضلة في الخلوة والعزلة، ومدتها المفضلة، وبشكل عام فإن مادة الخلوة وهي الذكر والمذاكرة، بعد القيام بفرائض الوقت أما الزمن فالأصل أنه تابع لحال المريد، وفراغه، واحتياجات قلبه، والهدف الذي من أجله كانت الخلوة، ونحن نفرق بين خلوة يعتمدها الإنسان لنفسه، وبين خلوة تحت إشراف شيخ بصير فقيه، فالخلوة التي تكون تحت إشراف شيخ، يحدد الشيخ ما ينبغي أن يكون فيها من أذكار ومذاكرات وزمان. وأما إذا اختار الإنسان لنفسه أن يقوم بخلوة فإننا نفصل له أن يكون برنامجها: عشرات الآلاف من الاستغفار وعشرات الآلاف من الصلاة على رسول الله ﷺ إلى غير ذلك. وكثيرون من الناس يناقشون قضية الخلوة، والأمر لا يحتاج إلى هذا الاختلاف فلو أن إنسانا رأى أن يخلو بنفسه في غرفة ليقوم بأعمال سباحة دون أن يؤثر ذلك على واجب لما كان الإنكار عليه، فإذا خلا الإنسان، ليقدم لنفسه دواء أو غذاء، ولقد كانت حياة الصحابة في غير أوقات الجهاد والعمل وإقامة الحقوق خلوات على قراءة القرآن، أو على ذكر، مع البعد عن الخلو، وفي اعتكاف رمضان، وفي خلوة الرسول ﷺ في غار حراء قبل البعثة أو النبوة وبعدها ما يستأنس به لهذا الموضوع. وليست العزلة عن المسلمين هي الأصل في حياة المسلم.[2]

المطلب الثاني: أولياء الله في الفكر الصوفي

إن وضوح المعنى المراد من ولاية الله تعالى في الكتاب والسنة، وظهور مقام الأولياء وما ظفروا به من الخضوع والإذعان لأمر الله الديني وطاعته، وبعدهم كل البعد عن الشرك بالله وذرائعه، وحرصهم على إخلاص العبادة لله، إذ ذلك كله لم يمنع من أن يتخذ هذا المفهوم اتجاها أخر في الفكر الصوفي الذي عم العالم الإسلامي وصار يمثل الفكر الصوفي في أكثر

(1) تلبيس ابليس لابن الجوزي، ص: 24.

(2) تربيتنا الروحية لسعيد حوى، ص 234 - 235.

بقاع الأرض، الأمر الذي أدى إلى انطماس معالم المفهوم الصحيح للولي في أذهان أكثر الناس، وإلى انمحاء أعظم ما يتصف به الولي ويميزه (الإيمان والتقوى) في عقولهم واعتقادهم.[1]

الفرع الأول: أولياء الله في القرآن والسنة

الأولياء جمع ولي، وقد جاء في القاموس الولي: القرب والدنو، والولي الاسم منه والمحب والصديق والنصير.[2]

من هنا كان أصل الولاية القرب والمحبة لأن أولياء الله تعالى هم الذين آمنوا به ووله فأحبوا ما يجب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى وسخطوا بما يسخط. قال عز وجل { أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ}[3] وعن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ: جهارا غير سر يقول: إن آل أبي - قال عمرو:» في كتاب محمد بن جعفر بياض ليسوا بأوليائي، إنما ولي الله وصالح المؤمنين.»[4] فليس في الإسلام تحديد للولاية بالنسبة الشخص أو نسب، اللهم إلا ما نص عليه الكتاب العزيز كما في صحابة الرسول ﷺ الذين نصروا وولوا، وتعرضوا للاضطهاد والتعذيب من أجل نصرة الله. وتكون ولاية العبد لله على هذا البيان - بحسب إيمانه وتقواه - فمن كان أكمل إيمانا وتقوى كان أكمل ولاية له، فهم يتفاضلون في ولاية بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى. والطريق إلى ولاية الله ليست مفروشة بالورود الرياحين، والسير إليها ينافي الميل إلى الدعة والخلود والراحة. وليست الولاية بضاعة يتوارثها الأبناء والآباء عن طريق « الأقرب أولى « ولكنها منهج واضح وصراط مستقيم، وتولى الله تعالى بيانها وتوضيح ثمارها الأمة محمد ﷺ قال: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشي أحب إلي مما افترضت عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أصيبه.»[5]

واعلم أن من أعظم ما يتبين به من هو ولي من أولياء الله سبحانه أن يكون مجاب الدعوة، راضيا عن الله عز وجل في كل حال، قائما بفرائض الله سبحانه، تاركا لمناهيه، زاهدا

(1) الفكر الصوفي لمحمد لوج، ج/1 ص: 55-56.

(2) القاموس المحيط للفيروز أبادي، مادة (ولي) الطبعة: 2 مؤسسة الرسالة 1987 بيروت، ص: 1732.

(3) سورة يونس الآية:62-63.

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب يبل الرحم ببلالها رقم الحديث:5990 ج/4 ص:85.

(5) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب التواضع رقم الحديث: 6502، ج/ 4، ص: 210.

فيما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها، لا يكون لنفسه شغل بملاذ الدنيا ولا بالتكاثر منها ولا بتحصيل أسباب الغني، وكثرة اكتساب الأموال والعروض إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شكر، يستوي عنده المدح والذم، والفقر والغنى، والظهور والخمول، غير معجب بما من الله به عليه من خصال الولاية، إذا زاده الله رفعة، زاد في نفسه تواضعا وخضوعا، حسن الخلق كريم الصحبة عظيم الحلم كثير الاحتمال. وبالجملة فمعظم اشتغاله بما رغب الله فيه، وندب عباده إليه فمن كملت له هذه الخصال، واتصف بهذه الصفات واتسم بهذه السمات، فهو ولي الله الأكبر الذي ينبغي لكل مؤمن أن يقر له بذلك، ويتبرك بالنظر إليه، والقرب منه. والباب الأعظم للدخول إلى سوح (الساحة) الولاية هو الإيمان بالله. وأولياء الله يتفاوتون في الولاية بقدر ما رزقهم الله سبحانه من الإيمان، فمن كان أقوي إيمانا كان في باب الولاية أعظم شأنا، وأكبر قدرا وأعظم قربا إلى الله بمحبة رسوله ﷺ، قال تعالى: {قُلِ اِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اَللَّهَ فَاتَّبِعُونِے يُحْبِبْكُمُ اُللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۖ وَاللَّهُ غَفُور رَّحِيمٌۖ }[1] وكلما ازداد بعد التهرب إلى الله بفرائضه واجتناب مناهيه، بفعل النوافل، والاستكثار من ذكره عز وجل، زاده الله محبة وفتح له أبواب الخير كله.[2]

وتأمل اللذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم، فالله تعالى لا يختار إلا شخصا كامل الصورة، لا عيب فيه ولا نقص في خلقه، فتراه حسن الوجه، معتدل القامة، سليما من آفة في بدنه. ثم يكون كملا في باطنه، سخيا، جوادا عاقلا، غير خب، ولا خداع، ولا حقود ولا حسود، ولا فيه عيب من عيوب الباطن فذلك الذي يربيه من صغره، فتراه في الطفولة معتزلا عن الصبيان، كأنه في الصبا شيخ، ينبو عن الرذائل، ويفزع من النقائص، ثم لا تزال شجرة همته تنمو، حتى يرى ثمرتها متهدلا على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، حافظ للزمان، مراع للأوقات ساع في طلب الفضائل. ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني يحوطه لرأيت كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن هم، ويستخدمه في الفضائل، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه.[3]

(1) سورة آل عمران الآية:31.

(2) قطر الولي على حديث الولي للشوكاني، ص 255-256-257.

(3) صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي تحقيق عبد الرحمان هنداوي، الطبعة:1 المكتبة العصرية 2002 بيروت ص: 269.

الفرع الثاني: الفرق بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان

وجمع الفرق بينهما اعتبار هم بموافقة رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإنه هو الذي فرق الله به بين أولياء السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أولياء أهل الجنة وأعدائه أهل النار، وبين أولياء أهل الهدى والرشاد وبين أعدائه أهل البغي والظلال و الفساد وأعدائه حزب الشياطين وأوليائه الذين كتب قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه. قال تعالى: { لَّا تَجِدُ قَوْما يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمُۥٓ أَوَ اَبْنَآءَهُمُۥٓ أَوِ اِخْوَٰنَهُمُۥٓ أَوْ عَشِيرَتَهُمُۥٓ}[1] وقال أيضا عز وجل: {إِنَّ اَلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيَٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُۥٓ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَۖ}، [2] فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه جزر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ.[3]

ولكن ليس لأحد أن يدعو وليا ميتا أو حيا أو غائبا، فلا يقول أحدهم: يا سيدي فلان أنا في حسبك أو في جوارك، ولا يقول بك أستغيث، وبك أستجير، ولا يقول إذا عثر يا فلان، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الاستغاثة للميت والغائب، ومسألته والاستغاثة به والاستنصار به، بل ذلك من أفعال المشركين، وعبادة الضالين. فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حيا وميتا، ولا لقبره، فكيف يجوز السجود لغيره؟ كذلك السجود لا يكون إلا على وجه مشروع وهو السجود في الصلاة، وسجود السهو وسجود التلاوة، وسجود الشكر على حد قول العلماء. وأما السجود عقب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء وكذلك ما يفعله بعض المشايخ والأولياء من سجدتين بعد الوتر لم يفعله أحد من السلف، إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة وهذا يشابه من يسجد للشرق في الكنيسة مع النصارى. ذلك من جعل الشيخ شيخا له في الدنيا والآخرة فهذه بدعة منكرة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله، ومن جهة أن قوله شيخك في الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له، فإنه إن أراد أن يكون معه في

(1) سورة المجادلة الآية:21.

(2) سورة الأنعام الآية:122.

(3) فتاوي ابن تيمية، ج/10 ص: 271-274.

الجنة، فهذا إلى الله لا إليه وإن أراد أن يشفع حتى يأذن الله له بالشفاعة بعد امتناع غيره منها. وكم من مدع للمشيخة والولاية فيه نقص من الإيمان والعلم ما لا يعلمه إلا الله تعالى.(1)

والولي لا يكون ولي الله حتى يبغض أعداء الله، وينكر عليهم، فمعاداتهم والإنكار عليهم هو من تمام ولايته ومما ترتب صحتها عليه. وأولياء الله سبحانه هم أحق عباد الله بالقيام في هذا المقام اقتداء برسول الله ﷺ، لذلك نجد أعدائهم كثيرون لكثرة ما منحهم الله من الخصال الشريفة، ويحسدونهم زيادة على ما يحسدون أهل الفضائل لاجتماعها لديهم، مع فوزهم بالقرب من الله بما فتح الله عليهم به من طاعته، فرائضها ونوافلها.(2)

وأولياء الله هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحظور وصبروا على المقدور، فأحبهم الله وأحبوه ورضي عنهم ورضوا عنه. (3)

الفرع الثالث: خَاتَم الأولياء

عقيدة ختم الولاية فكرة صوفية أول من تكلم به رجل يدعى – الذي سال لعابه بهذه الأسطورة -الحكيم الترمذي، من أهل ترمذ، نفي منها بسبب تأليفه كتاب ختم الولاية وحكموا عليه بالكفر، عاش في القرن الثالث الهجري، وهي عقيدة معادة لما في القرآن الكريم والسنة. إذ أخر الأولياء كما يدل عليه المعنى اللغوي لهذين اللفظين، وكما يفهم من سكوت النصوص الشرعية وعدم ورود شيء بشأنه إنما هو أخر مؤمن تقي يكون من الناس، وليس هو بخير الأولياء ولا أفضلهم لعدم ورود نص في هذا، بل أفضلهم أبو بكر وعمر اللذان ما طلعت الشمس وما غربت على أحد بعد النبيئين أفضل منهما بنص الرسول صلى الله عليه وسلم ويبدو أن الصوفية أطبقوا على الترحيب بالفكرة من حيث المبدأ، وبقي تعيين من هو ذلك الولي الخاتم؟ فوجدنا مجموعة كبيرة منهم اندفعت إلى الزج بنفسها أو بشيخها في هذا الميدان. ولعل الأوصاف العظيمة التي أضافها الترمذي صاحب الفكرة على هذا الولي هي التي شوفتهم إلى ترشيح شيوخهم أو أنفسهم لهذا المنصب الخطير.(4)

(1) فتاوي ابن تيمية ص: 497-499.

(2) قطر الولي على حديث الولي للشوكاني، ص 275.

(3) الفكر الصوفي ج/1 ص:54.

(4) الفكر الصوفي ج/1 ص:79-80.

ويقول ابن تيمية عنه: «في كلامه من الخطأ ما يجب رده، ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية مثل دعواه في أنه يكون من المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما، ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذي يكون في آخر الزمان، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء. وتوالت عناكب الصوفية على هذه الأسطورة، حتى قتلت بفكرها الخلف الكثير.»[1]

قال ابن العربي وهو يتحدث عن علم وحدة الوجود: «وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء، أو الرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه - متى رأوه - إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا، فالمرسلون من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء. فابن العربي يزعم أن الرسول لا يستمدون أشرف علومهم إلا من خاتم الأولياء، وهذا يستلزم تفضيل الولي الخاتم على الرسل بعامة وعلى النبي الخاتم بخاصة.» [2]

يقول ابن تيمية: «ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة، لا حقيقة لها، وصار يدعيها لنفسه، أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد، ولم يدعها إلا من في كلامه من الباطل، ما لم تقله اليهود والنصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص.»[3]

الفرع الرابع: أصناف الصوفية

فالصوفية على ثلاث أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الاسم. فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم في الصوفية السنية وهم المجتهدون في العبادة والزهد. وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف، كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا غزير وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط: أحدهما العدالة الشرعية، بحيث يؤدون الفرائض

(1) فتاوى ابن تيمية، لابن تيمية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت 2011، المجلد الأول، ج/2 ص:115.

(2) شرح فصوص الحكم لابن العربي، لمصطفى بن سليمان، وضع حواشيه فادي أسعد نصيف، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 2004 ص:48

(3) هذه هي الصوفية لعبد الرحمان الوكيل، الطبعة:4 دار الكتب العلمية 1984 بيروت، ص: 128-129.

ويجتنبون المحارم. والثاني التأدب بأدب أهل الصوفية السنية، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها. والثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال، أو كان غير متخلف بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآدب الشرعية، أو كان فاسقا فإنه لا يستحق ذلك. وأما صوفية الاسم فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد، ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم. وأما اسم الفقير فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكن المراد هو الفقير المضاد للغني. فإذا قيل هذا فيه فقر لم يرد به عدم المال ولكن يراد به عند الصوفية المعارف والأخلاق والآداب ونحو ذلك. وعلى هذا الاصلاح قد تنازعوا أيهما أفضل الفقير، أو الصوفي. فذهبت طائفة إلى ترجيح الصوفي، كأبي جعفر السهروري ونحوه، وطائفة أخرى رجحت الفقير، وربما يختص هؤلاء بالزوايا، وبالخوانك ونحو ذلك، وأكثر الناس قد رجحوا الفقي.[1]

المطلب الثالث: الكرامات بين الاثبات والتلبيس

ميز المسلمون بين الآية والمعجزة والكرامة وقالوا فيها: إن الآيات الله تعالى، والمعجزات للأنبياء عليهم السلام، والكرامات للأولياء وللأخبار من المؤمنين.

الفرع الأول: الكرامة في اللغة والاصطلاح

1 -لغة: الكرامة العزازة واستكرم الشيء طلبه كريم أو وجده كريما ويقال كرمه وأكرمه تكريما وإكراما وكرامة، فتكون اسم مصدر.[2]

2 -اصطلاحا: الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة، ويرى ابن تيمية أن أولياء الله تعالى، الذين اقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وساروا على منهجه، لا بد أن يؤيدهم الله بروح منه ويقذف في قلوبهم من أنواره،

---

(1) لطائف المتن لابن عطاء الله، ص: 43.
(2) القاموس المحيط ص:1410.

ويكرمهم ببعض الأمور الخارقة للعادة. هذه الكرامات يظهرها الله عز وجل على أيدي أوليائه إما لحاجة المسلمين وإما لحجة في الدين، فابن تيمية يتفق مع الصوفية الذين يرون في الكرامات إكراما من المولى سبحانه لبعض أوليائه الذين يحاربون المخالفين ويقوون إيمان المترددين. والناس برأي ابن تيمية فيما يتعلق بالكرامات وخوارق العادات على ثلاثة أقسام: قسم أول يحصر هذه الخوارق بالأنبياء فقط، وقسم ثاني يعتبر أن كل خرق للعادة إنما يعني أن صاحب ذلك ولي من الأولياء، وقسم ثالث وهم الذين يربطون بين الكرامات واتباع الكتاب والسنة وهؤلاء هم المصيبون. [1]

ونقل اليافعي عن نصير الدين الطوسي قال: «هي الفعل الخارق الذي يظهر على أحد من غير تحد يسمى كرامة.»[2]

وهذا التعريف قائم غير مانع لأن من شأن الساحر أن يظهر على يديه خوارق للعادات، من غير أن يتحدى لعلمه أن هناك غيره من السحرة والمشعوذين والمستدرجين.[3]

وعرف الجرجاني الكرامة فقال: «هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة.»[4]

الفرع الثاني: الفرق بين الكرامة والمعجزة

عرفنا معنى الكرامة لغة واصطلاحا، وحتى نعرف الفرق بينهما وبين المعجزة والأحوال الشيطانية، نرى أنه لا بد من إلقاء ضوء كاشف على معنى المعجزة وشرائطها. ونقول المعجزة هي كل أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له، على وجه يبين صدق دعواه. والمعجزة أمر خارق للعادة، يوضح أن المعجزة إنما تخالف العادة والمألوف ولا

(1) ابن تيمية والصوفية، ص: 141 142-.

(2) نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، لأبي عبد الله بن أسعد اليافعي، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2000، ص:17.

(3) الفكر الصوفي لمحمد لوج ج/2 ص:278.

(4) نفسه ج/2 ص:278.

تخالف العقل والإمكان. وقولنا: يظهر على يدي مدعي النبوة، إخراج للخوارق التي قد تكون لبعض المقربين والصالحين مما يسمى بالكرامة.

وقولنا عند تحدي المنكرين احتراز عما قد يقع من ذلك مصادفة، لا على وجه التحدي وإظهار صدق النبوة فهي عندئذ من نوع الإكرام الإلهي. لذلك يجب على المسلم أن يعتقد بأن الله عز وجل قد جهز أنبياءه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تبين صدق دعوتهم وتوضح للناس ارتباطهم بالله جل جلاله وأنهم مؤيدون به. وما من نبي إلا وقد أكرمه الله عز وجل بمعجزة نبهت الناس إلى ضرورة الإيمان به والتمسك بهديه. وإذا علمت أن المعجزة إنما هي من خوارق العادة، أدركت أن العقل لا يحيل إمكان وقوعها، ذلك أن استمرار الظواهر الطبيعية على نسقها المألوف الذي نراه ليس شيئا ضروريا يفرضه العقل فرضا، وإنما هو مما نسجته العادة وتكون بفعل الأسباب الجعلية وما يلحق هذه الخوارق من التعجب منها أو الاستنكار لها إنما هو بسبب غرابتها عن المشاهدة والمألوف.(1)

ومادة عجز تدور حول الضعف وعدم الحزم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بها، فصار كأنه أعجزهم. ويبين القرطبي ذلك فقال: «والفرق بين المعجزة والكرامة، أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار، وقيل الكرامة ما تظهر من غير دعوة والمعجزة تظهر عند دعوى الأنبياء فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك.»(2)

وأما الفرق بين الكرامة والأحوال الشيطانية كالسحر والشعوذة ونحوهما، فمتى وجدنا شخص مخالف للشرع متلبسا بالبدع علمنا أن ما يجري على يديه من هذه الأمور ليست بكرامة، بل هي إما استدراجا من أعمال الشياطين، التي يكون سببها ارتكاب ما نهى الله عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن المعاصي لا تكون سببا لكرامة الله، فكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة، كان أكثر تلبيسا بالشرك والبدع والفواحش، وكانت الخوارق الشيطانية له أقوى و أكثر، حيث إن الشياطين الذين يقترنون بهم يقدمون لهم بكل ما يشتهون بسبب ما يربطهم بهم من الكفر والفسوق والعصيان.(3)

---

(1) كبرى اليقينيات الكونية للبوطي، ص: 214-215.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي تحقيق سالم مصطفى البدري دار الكتب العلمية بيروت سنة:2013 ج/6 ص:21.

(3) الفكر الصوفي لمحمد لواج، ج/ 2 ص: 280-281-282.

وعند الكلاباذي تمييز من نوع أخر بين المعجزات وكرامات الأولياء، فقال: فالذي للأنبياء معجزات وللأولياء كرامات وللأعداء مخادعات. وقال بعضهم: إن كرامات الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وبإثباتها ناطقون، لأن الأولياء يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة، والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها لأنهم معصومون.(1)

والأنبياء كلما زيدت معجزاتهم وكثرت يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبينا ﷺ قد أعطي جميع ما أعطي للأنبياء من المعجزات ثم زيادة أشياء لم يعط أحد غيره مثل المعراج... وأن الأنبياء كلما زيدت لهم المعجزات يكون أتم لمعانيهم وفضلهم، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت في كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أكثر حذرا أن يكون ذلك من المكر الخفي لهم والاستدراج، وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل وسببا لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل.(2)

يقول أبو بكر بن فورك رحمه الله: «المعجزات دلالات الصدق ثم إن أدعى صاحبها النبوة فالمعجزات تدل على صدقه في مقاله وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه في فتسمى كرامة ولا تسمى معجزة وإن كانت من جنس المعجزات القرق، وكان يقول: الفرق بين المعجزة والكرامة أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها والنبي يدعي ذلك ويقطع القول به، والولي لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا.» (3)

الفرع الثالث: جواز الكرامات للأولياء

ومن وهب هذه الموهوبات الجليلة وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة فغير بعيد، ولا مستنكر أن تظهر على يده من الكرامات التي لا تنافي الشريعة والتصرفات في مخلوقات الله عز وجل الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه، ولم يصب من جعل ما يظهر من كثير من الأولياء من قطع المسافات البعيدة، والمكاشفات المصيبة والأفعال التي تعجز

(1) التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي تصيح آرثر جون أوبري، مكتبة الخانجي 1933 مصر ص: 46.
(2) اللمع في التصوف للطوسي ص: 318-319.
(3) الرسالة القشيرية ص:343.

عنها غالب القوى البشرية، من الأفعال الشيطانية والتصرفات الابليسية. فإن هذا غلط واضح، لأن من كان مجاب الدعوة لا يمتنع عليه أن يسأل الله سبحانه أن يوصله إلى أبعد الأمكنة التي لا تقطع طريقها إلا في شهور في لحظة يسيرة، وهو القادر القوي الذي ما شاءه كان، وما لم يكن، وأي بعد في أن يجيب الله عنهم من الكرامات التي يصعب حصرها، في كتب الحديث والسير من ذلك الكثير الطيب، وكذلك من الأمم السابقة التي ظهر فيها أولياء صالحين حسب ما نقل إلينا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس لنا أن ننكر إلا ما أنكرته الشريعة المطهرة السمحاء، فمن جاء بما يخالفها رفضناه ومنعناه.[1]

فظهور الكرامات على الأولياء جائز و الدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده و إذا وجب كونه مقدورا الله فلا شيء يمنع جوازه وحصوله، وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز لا والذي يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه إيانا حتى نفرق بين من كان صادقا في أحواله وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولي بما لا يوجد مع المفتري في دعواه وذلك الأمر هو الكرامة، ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة في أيام التكليف ظاهرا على موصوف بالولاية في معنى تصديقه في حاله وتكلم الناس في ذلك طويلا.[2]

يقول ابن تيمية: «وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان بها على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعة وقربا إلى الله ورسوله، وعلت درجته. وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب. ولهذا كثيرا ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه، وثارة بسلب التطوعات فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام.»[3]

---

(1) لطائفة المنن لابن عطاء الله، ص 27.

(2) الرسالة القشيرية ص: 342.

(3) الفرق بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان لابن تيمية، تحقيق محمود عبد الوهاب فايد، دار العلم للجميع القاهرة، ص: 151-152

واعلم أن كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعا. وممن قال بها الإمام القاضي أبو بكر بن الطيب فقال: «إن المعجزات تختص بالأنبياء والكرامات تكون لأنبياء. وقال إمام الحرمين: المرضي عندنا تجويز خوارق العادات في معارض الكرامات. وذكر أبو حامد، رحمه الله كرامات الأولياء فقال: ذلك مما لا يستحيل في نفسه لأنه ممكن لا يؤدي إلى محال. وقال الإمام أبو عبد الله الشهرستاني: أما الكرامات عند الأولياء فجائزة عقلا وواردة سمعا ومن أعظم كرامات الله تيسير أسباب الخير وإجراؤه على أيديهم وتعسير أسباب الشر عليهم، وحيثما كان التيسير أكثر كانت الكرامات أوفر. وما ينقل عن صالحي هذه الأمة أكثر من أن يحصي وهي بأحادها إن لم تفدنا علما بوقوعها فهي بمجموعها أفادتنا علما قطيعا ويقينا صادقا بأن خوارق العادات تظهر على أيدي أصحاب الكرامات. واعلم أن كل كرامة تظهر على يد ولي فهي يعينها معجزة للنبي إذا كان الولي في معاملاته تابعا لذلك النبي صلى الله عليه وسلم فكل ما يظهر في حقه فهو دليل على صدق صاحب شريعته. فلا تكون الكرامات قادحة في المعجزات، بل هي مؤيدة لها، دالة عليها، راجعة عنها، عائدة إليها ثم قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ}[1] وليت شعري أي كرامة تزيد على نيل الفرقان بين الحق والباطل وسبيل النجاة والهلاك.[2]

الفرع الرابع: الكرامة عند أهل السنة والجماعة

إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين والذين انفقوا في كل زمان ومكان، هداهم الله إلى معرفة الحق واتباعه في جميع المسائل الدينية، فكان نهجهم هو المنهج القويم، وطريقتهم هي الوسيلة بين إفراط المفرطين وتفريط المفرطين، وذلك لأنهم أكثر الناس حرصا على معرفة الحق، و أكثرهم اجتهادا في طلبه والبحث عنه، وأشدهم تمسكا به عند تحصيله، فقربهم الله تعالى لأنهم يعلمون أن الله الذي وضع الأسباب وخلق المسببات قادر على خرق هذه السنن المألوفة لعبد من عباده، لهذا كان من أصولهم التصديق بكرامات وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم وهي كثيرة، كما وقعت لعدد من الصحابة رضي الله عنهم في روايات

(1) سورة الأنفال الآية:29.

(2) التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب التالي المعروف بابن الزيات، تحقيق أحمد التوفيق ط2، منشورات كلية الآداب بالرباط 1997 مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ص 54-55.

صحيحة لا سبيل إلى إنكارها، وقد أشار ابن تيمية إلى أن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو آلاف معجزة وأعظمها معجزة القرآن بلا نزاع. غير أن أهل السنة والجماعة عملوا بالاستقراء وإرجاع كل فرع إلى أصله أنه ليس كل خارق للعادة كرامة، وليس كل ما جاء بأمر خارق ولي الله تعالى، فإثبات الكرامات يجب تقييده بقيود مميزة، وضبطه بضوابط معينة توضح حقيقة هذا الأمر وتمنع من التباسه، وهذه الضوابط إذا تأملناها نجد أنها عامة وخاصة أجملها جميعا فيما يلي: - الضابط الأول: أنه ليس من منهج الإسلام ولا من تعاليمه الاعتماد الكلي على الخوارق والكرامات. – الضابط الثاني: أن الخوارق ليست من صنع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من صنع غيره من أولياء الله، ولا هي من شأنهم، إنما هي أمر من الله تعالى وفق تدبيره وتقديره وحكمته.

- الضابط الثالث: الاستقامة على طريق الهدى، طريق أهل السنة والجماعة.

- الضابط الرابع: أن صاحب الكرامة لا بد أن يكون بعيدا عن الكذب، والتكلف، وحب الشهوة،

لأن كل ذلك يقدح في النية والمقصد.

- الضابط الخامس: أن الكرامة تكون في النصرة للدين وإعلاء كلمة الله، فلو حصلت على يد إنسان خوارق تشبه الكرامات ولم تكن الغاية من حصولها أمرا يحبه الله ويرضها لم تكن كرامة، بل تتقلب عقوبة ونقمة عليه.

- الضابط السادس: أن الكرامة نفسها لا تكون معصية الله تعالى ولا مخالفة للشرع.[1]

ومن هذه الكرامات ما جاء في القرآن الكريم عن قصة الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب مع سليمان عليه السلام، في قوله تعالى: { قَالَ ٱلَّذِے عِندَهُۥ عِلْمٞ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَآ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَنْ يَّرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۖ فَلَمَّا رِءِاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّے لِيَبْلُوَنِيَ ءَآشْكُرُ أَمَ اَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّے غَنِيّٞ كَرِيمٞۖ}[2] و الرجل الذي كان

(1) الفكر الصوفي لمحمد لوج، ج/2، ص: 287-288.

(2) سورة النمل الآية:41.

له هذا العمل الخارق ليس نبيا بل مؤمنا عنده علم الكتاب، وبالتالي فإن ما كان على يده هو كرامة من الله وليس معجزة.

ومن الكرامات التي وردت في القران الكريم كرامة مريم المقدسة، التي لم تكن نبية ولها معجزة، وإنما هي واحدة من السيدات أو من سيدات نساء العالمين اصطفاها ربها فأعطاها من الكرامات ومنها قوله تعالى: { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآءُ اُلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاًۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّيٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اِ۬للَّهِۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[1] وهنا حضور الطعام والرزق إلى مريم ما هو إلا كرامة من الله تعالى. ويمكننا أن ندرك الفتية المؤمنين الذين زادهم الله تعالى هدى، وأمرهم أن يأووا إلى الكهف، وهم ليسوا أنبياء، وكل فارق حصل لهم يدخل في باب الكرامات وسأذكر واحدة من كراماتهم أخبرنا عنها الله تعالى بقوله: {۞وَتَرَي اَ۬لشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَّوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اَ۬لْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ اَ۬لشِّمَالِ وَهُمْ فِے فَجْوَةٍ مِّنْهُۖ ذَٰلِكَ مِنَ ءَايَٰتِ اِ۬للَّهِۖ مَنْ يَّهْدِ اِ۬للَّهُ فَهُوَ اَ۬لْمُهْتَدِۦ وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّاً مُّرْشِداًۖ}[2] إن من كراماتهم وهم في الكهف وفيه فجوة يمكن لنور الشمس أن يدخلها فيكون منه الأذى، فإذا بالشمس تميل عن فجوة الكهف عند الشروق وتتجاوزهم وتميل عنهم من جهة شمال الداخل من الكهف عند الغروب، وكل ذلك تكريم من الله لمن اصطفاهم.[3]

هذا من كرامات الأمم السابقة، ومن المسلم به أن للأخيار المقربين من أتباع محمد ﷺ كرامات بقدر ما جاء لمن سبقهم من صالحي الأمم إذا لم يكن أكثر.

وهذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة.[4]

---

(1) سورة آل عمران الآية:37.

(2) سورة الكهف الآية:17.

(3) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 152-153.

(4) الرسالة القشيرية ص:345.

والثابت في سير السلف الصالح أنه قد أمدهم الله بكرامات تواتر نقلها. من هذه الكرامات قصة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف إلى فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرة فأكلوا منها وشبعوا.

ومن الكرامات أيضا قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جيش سارية بن زنيم عندما كان على أبواب نهاوند فناداه من على المنبر في المدينة: يا سارية الجبل. فأخذ سارية وعسكره الجبل بظهورهم وكان لهم النصر بسبب ذلك. ومما يؤثر من الكرامات أن أسيد بن حضير وعتاب بن بشير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج.(1)

ومنها أسيد بن حضير الأنصاري (رضي الله عنه) كان يقرأ سورة الكهف فنزلت عليه السكينة من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال:» لو استمر على تلاوته لاستمرت تلك السكينة واقفة عليه باقية عنده». وكانت الملائكة تسلم على عمران الحصين، وكان سلمان الفارسي وأبو الدرداء يأكلان في صفحة فسبحت أو سبح ما فيها.(2)

وقال أبو يعلى الفتوح بن أبي بكر المتيوي: قعدت يوما على حجر في وسط البحر أتفكر في المشي على الماء فنازعتني نفسي إلى ذلك فغرقت وخرجت وقعدت مغتما، فرأيت شبه سحابة قد أقبلت من ميناء سبتة، فما كان إلا قليلا حتى وصل إلي رجل، فمشي على الماء حين قاربني حتى وصل إلي فقال: يا أبا يعلى، هكذا يكون المشي على الماء فقضيت العجب من ذلك.

وذكر أبو عبد الله الدقاق وهو سجلماسي قال: دخلت في بلد لا يجاز إليه إلا على قنطرة ضيقة لا يمر عليها إلا شخص واحد، فإن التقى عليها شخصان رجع أحدهما لئلا يسقط الآخر فكنت عليه ذات يوم، فرأيت امرأة ضعيفة قد استقبلتني، فكرهت أن أتعبها بالرجوع فوثبت لأسقط عن القنطرة في الوادي فأمسكت في الهواء، فلما اجتازت المرأة عدت إلى القنطرة.

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 154-155.

(2) لطائف المنن لابن عطاء الله الإسكندري، ص: 28.

قالت مينة بنت ميمون الدكالي: زرت ولدي حسونا بحارة بني يعبيدن بمراكش في فصل المطر والطين، فخرجت من عنده إلى مسكني ببحيرة أبي مروان بمراكش وأنا أسمع أذان المغرب، فخرجت وأنا لم أشعر إلا وأنا عند باب مسكني، وآذان المغرب لم ينقطع.(1)

فهذه المرأة الصالح انطوت لها الأرض، وتقوم هذه الكرامة على تغيير المسافات من جهة السرعة والزمن، حيث يتمكن بعض الصلحاء من قطع مسافات طويلة في زمن محدود مع الاحتفاظ بالسرعة المعتادة للراجل أو الفارس.

فالكرامات عند أهل السنة والجماعة أفضل وأجل، وهي تلك الكرامة المعنوية، فالمعرفة بالله والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة للامتثال أمره ونهيه، والرسوخ إلى اليقين والقوة والتمكين، ودوام المتابعة والاستمتاع من الله، والفهم عنه، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه إلى غير ذلك.(2)

لكن الكرامة عند الصوفية الباطلة تجدها بعيدة كل البعد عما شرعه الدين الحنيف، فأول انحراف صوفي باطل يلقاه الباحث عندما يقرأ أي كتاب من كتب التراث الصوفي الطرقي، هو اعتمادهم الكلي على الخوارق، واهتمامهم في مناهجهم على المبالغة في نشر خوارق الشيوخ، وتركيزهم على اختراق قصص خيالية، وأساطير بالية ليرفعوا بها ما للشيوخ والأولياء من مكانة ومنزلة في نفوس الأتباع ويحملوهم على الإذعان لهم وتقديسهم لدرجة العبادة. ومبادرتهم إلى تفسير كل ظاهرة غريبة بأنها كرامة. أما أنصار الفكر الصوفي الباطل الذين لا يتصورون ولاية بدون خوارق فقد ركبوا كل صعب وذلول، وطرقوا كل باب مسدود، وذهبوا كل مذهب في سبيل نسج القصص، واختلاف الروايات الخالية وجمع الأساطير المخجلة.(3)

وبهذا يصبح من واجب المؤمن الصالح وإن بلغ في الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان، أن يكون مقتديا بالكتاب والسنة، وازنا لأفعاله وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهرة، واقفا على الحد الذي رسم فيها، غير زائغ عنها في شيء من أموره. ويجب على من أعطي كرامة من الله

(1) التصوف والمجتمع، ص: 117-118-121.
(2) لطائف المنن، ص: 100-101.
(3) الفكر الصوفي، ج/2، ص: 293 - 298.

تعالى أن يتصرف بها وفق ضوابط وأحكام الإسلام، حتى تكون له دليل رفعة مقام، وإلا إن اغتر أو شطح كانت فتنة له،وخسر مرضاة الله.[1]

(1) التصوف منشؤه ومصطلحاته، ص: 156.

خاتمة

يولد الإنسان على الفطرة كما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي رواه الشيخان « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»

وجاء الإسلام لإرجاع الإنسان إلى هذه الفطرة، التي تقوم على تنوير القلب بنور التوحيد الخاص، وإذا استنار القلب بنور الله رأى النعم كلها صادرة عن الله عز وجل. وبقدر الخلل في توحيد الله اعتقادا أو شعورا يوجد الشرك الأكبر أو الأصغر، فإذا وجد الشرك انطفأ نور الفطرة كله. فكان هدف الإسلام من إقرار التوحيد هو تحقيق السعادة في الدارين. وكل مسلم في الحقيقة سائر إلى الله ما دام ينصاع ويفعل ما أمره به.

ومن الأمور التي تطرقت إليها في البحث، أني عرجت على مخائل التربية الإسلامية الصحيحة والسليمة، وجعلتها مرتبطة بالتصوف السني النقي، الذي ينصاع تحت ضوء الشريعة الإسلامية، ولا شك أن هناك أسباب كثيرة جعلت الناس يختلفون حول علم التصوف. فكل واحد يدلي برأيه الخاص حوله، ويفند آراء من سبقوه، حتى أن علم التصوف لم يحتكم على تعريف جامع مانع.

ففي الحقيقة التصوف السني هو الذي يجمع التربية الرفيعة والأصلية لأنه منقيد بأصول وضوابط الشريعة السمحا، وبذلك تكون أصوله صحيحة ومنابعه صافية.

وقد حاولت في بحثي هذا تقديم نوع من التصوف المحرر على ضوء الكتاب والسنة ومذاهب أهل الحق، لإيماننا أن هذا وحده هو الذي يجب أن يكون وأن يصير إليه الناس جميعا، فالسير إلى الله لا يمكن أن يلغي، بل يجب أن يكون حثيثا، ولكن ينبغي التحري والتمحيص وإزالة الشوائب، فليس الصوفي ولا غيرهم معصومون، فالمعصوم هو الذكر الحكيم، وما نطق به الصادق المصدوق، فليس كل ما قاله الصوفي معصوم، والذي يريد أن يجعل لكتب الصوفية من العصمة ما للكتاب والسنة، فهو على خطأ كبير. فإذا كان رأينا في أمثال هؤلاء كذلك، فرأينا في الذين يرفضون علم التصوف وما فيه لمجرد أن وجد خطأ

فيه، هو أن هؤلاء يجانبون الرأي الصحيح في هذا الموضوع، فيقابلون خطأ بخطأ. ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء المتعصبون يتصرفون برد فعل انفعالي غير عقلاني ولا متزن.

فالتصوف بدأ في أول أمره كحركة ثم صار علما، وبذلك أصبح التصوف نزعة أصيلة في النفس البشري، فلا بد أن يكون جزءا من أية دعوة راشدة خالدة، حتى أن الأمة ورثت إرثا ضخما من كتب التصوف ولا تزال الدائرة تتوسع في مجاله، ونريدها حقيقة صوفية محررة من الدخن... وقد مثل لذلك العالم الداعية الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الذي قدم أصفقه اجتهاداته في عصرنا الحاضر، حين جعل من سمات دعوته إلى الله تنطبع بالتربية الصوفية السنية. فكل قرائه يلتمسون الطابع التربوي الذي ينهل من الصوفية، فها هو ذا يتحدث عن والده الملا رمضان في صفحات خالدة وصلت صداها إلى بقاع العالم، فتميز في هذا الكتاب بالذات بالتحدث عن التربية الإسلامية وارتباطها بمبدأ التصوف السليم.

فهذا ما جعلني أتشبث به ولأدع زورق الحنين يبحر مسرعا نحو شاطئ فكره.

وعزمت على اتخاذ كتاب « هذا والدي» نموذجا لبحثي، فكانت بذلك الانطلاقة وليت بحثي يصل إلى الأذهان والعقول الواعية المتحضرة السلمية. ومسك القول أن يجعلني الله وإياكم من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، إنه سميع قريب مجيب.

وكتبه حامدا مصليا الفقير إلى عبد ربه الدكتور عبد اللطيف بن رحو

يومه الثلاثاء 26 ربيع الأول 1443هـ الموافق 02 نونبر 2021

فهرس الآيات القرآنية

[سورة الفاتحة]

الآية	رقمها	الصفحة
الحمْدُ لله رَبِّ العَالمين...	1	28
إيّاكَ نَعْبُد وإيَّاكَ نَسْتَعِين...	4	41

[سورة البقرة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَيٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَة...	50	135
فَاذْكُرُونِے أَذْكُرْكُمْ...	151	52
وَمِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يَّتَّخِذُ مِن دُونِ اِللَّهِ أَنداداً...	164	67
وَالذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّا لِّلَّهِ وَلَوْ تَرَي اَلذِينَ...	164	118-119
۞وَاذْكُرُواْ اُللَّهَ فِے أَيَّامٖ مَّعْدُودَٰتٖ...	201	48
اَللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ اَلْحَيُّ اُلْقَيُّومُ...	253	32

[سورة آل عمران]

الآية	رقمها	الصفحة
۞إِنَّ اَللَّهَ لَا يَخْفِيٰ عَلَيْهِ شَيْءٞ فِے اِلَارْضِ ...	5	34
شَهِدَ اَللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ...	18	30
وَيُحَذِّرُكُمُ اُللَّهُ نَفْسَهُۥۖ وَإِلَى اَللَّهِ اِلْمَصِيرُ...	28	70
قُلِ اِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اَللَّهَ فَاتَّبِعُونِے يُحْبِبْكُمُ...	31	140

فتقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نبَاتاً حَسَناً وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ...	37	151
﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ...	42	133
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...	102	70
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ...	144	101
إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ...	175	69
ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ	191	53

[سورة النساء]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...	47	73
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ...	68	43
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ...	103	51
وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً...	163	34

[سورة المائدة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟...	25	63
فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ...	41	61
وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ	77	133
إِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ...	85	125

[سورة الأنعام]

الآية	رقمها	الصفحة
وَلَا تَطْرُدِ اِلذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ...	53	82
إِنِّے وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِے فَطَرَ اَلسَّمَٰوٰتِ وَالَارْضَ حَنِيفاًۖ...	80	41
وَإِنَّ اَلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ...	122	141

[سورة الأعراف]

الآية	رقمها	الصفحة
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ...	22	52
لَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَيٰ قَوْمِهِۦ...	58	30
هُدي وَرَحْمَة لِّلذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ...	154	72
وَلِلهِ اِلَاسْمَآءُ اُلْحُسْنَيٰ فَادْعُوهُ...	180	36
وَإِذَا قُرِےءَ اَلْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ...	204	126

[سورة الأنفال]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ اَلذِينَ إِذَا ذُكِرَ اَللَّهُ...	2	129
يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ اُللَّهَ يَجْعَل...	29	149
وَاصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ اَللَّهَ مَعَ...	47	76
۞وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اَسْتَطَعْتُم...	61	117
تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ...	68	55

[سورة التوبة]

الآية	رقمها	الصفحة
قُلِ اِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ...	24	66
۞يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرا مِّنَ...	34	93
إِنَّ اَللَّهَ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيمٌۖ...	116	33
يَٰٓأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ إِتَّقُواْ اُللَّهَ...	120	39

[سورة يونس]

الآية	رقمها	الصفحة
اَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اَللَّهِ لَا خَوْفٌ...	62	139
اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ...	63	140

[سورة هود]

الآية	رقمها	الصفحة
۞وَمَا مِن دَآبَّة فِے اِلَارْضِ إِلَّا عَلَي اَللَّهِ...	6	29
وَبِيسَ اَلْوِرْدُ اُلْمَوْرُودُۖ...	98	46

[سورة يوسف]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالا...	109	133

[سورة الرعد]

الآية	رقمها	الصفحة

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ قُلِ اِ۬للَّهُۖ...	17	28
اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اِ۬للَّهِۖ...	29	48

[سورة الحجر]

الآية	رقمها	الصفحة
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ اُ۬لْمُخْلَصِينَۖ...	40	46
وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّيٰ يَاتِيَكَ اَ۬لْيَقِينُۖ	99	133

[سورة النحل]

الآية	رقمها	الصفحة
أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۖ...	17	26

[سورة الإسراء]

الآية	رقمها	الصفحة
قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ...	42	25
قُلُ اُدْعُواْ اُ۬للَّهَ أَوُ اُدْعُواْ اُ۬لرَّحْمَٰنَۖ...	109	36

[سورة الكهف]

الآية	رقمها	الصفحة
۞وَتَرَي اَ۬لشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَّٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ...	17	151
وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ...	24	48
قُل لَّوْ كَانَ اَ۬لْبَحْرُ مِدَادا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّے...	104	35

[سورة مريم]

الآية	رقمها	الصفحة
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم...	58	125

[سورة طـه]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا...	14	48
وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ...	129-130	136

[سورة الأنبياء]

الآية	رقمها	الصفحة
لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ...	22	25
لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ...	23	33
أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّ...	86	30
وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي	88	28

[سورة الحج]

الآية	رقمها	الصفحة
۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ...	36	103

[سورة المؤمنون]

الآية	رقمها	الصفحة
مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ...	92	26

[سورة النور]

الآية	رقمها	الصفحة
رِجَال لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَة وَلَا بَيْعٌ...	36	70

[سورة الفرقان]

الآية	رقمها	الصفحة
وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦ ءَالِهَةً...	3	26
وَعِبَادُ اُ۬لرَّحْمَٰنِ اِ۬لذِينَ يَمْشُونَ عَلَي اَ۬لَارْضِ...	63	120

[سورة النمل]

الآية	رقمها	الصفحة
قَالَ اَ۬لذِے عِندَهُۥ عِلْم مِّنَ اَ۬لْكِتَٰبِ أَنَآ...	41	150
وَتَرَي اَ۬لْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَة وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ اَ۬لسَّحَابِۖ...	90	128

[سورة القصص]

الآية	رقمها	الصفحة
أُوْلَٰٓئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم...	54	76

[سورة لقمان]

الآية	رقمها	الصفحة
وَاقْصِدْ فِے مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَۖ...	18	121

[سورة السجدة]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّمَا يُومِنُ بِـَٔايَٰتِنَا اَ۬لذِينَ...	15-16	75

[سورة الأحزاب]

الآية	رقمها	الصفحة
مِّنَ اَ۬لْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ اُ۬للَّهَ...	23	42
وَالذَّٰكِرِينَ اَ۬للَّهَ كَثِيراً وَالذَّٰكِرَٰتِ...	35	49
اِ۬لذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ اِ۬للَّهِ...	39	69
يَٰٓأَيُّهَا اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ اُ۟ذْكُرُواْ اُ۬للَّهَ...	41	51

[سورة يس]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ لَهُۥ...	81	32

[سورة الصافات]

الآية	رقمها	الصفحة
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَۖ	96	29

[سورة ص]

الآية	رقمها	الصفحة
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ وَمَآ...	84	109

[سورة الزمر]

الآية	رقمها	الصفحة
أَلَا لِلهِ اِ۬لدِّينُ اُ۬لْخَالِصُۖ وَالذِينَ...	3	43
قُلِ اِ۬للَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصا لَّهُۥ دِينِ...	14	46
فَبَشِّرْ عِبَادِ...	16	129
اِ۬لذِينَ يَسْتَمِعُونَ اَ۬لْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ...	17ۖ	126-128
ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمُۥ...	22	49-130
إِذَا ذُكِرَ اَ۬للَّهُ وَحْدَهُ اُ۪شْمَأَزَّتْ...	42	24
قُلْ يَٰعِبَادِيَ اَ۬لذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَيٰٓ...	50	73

[سورة الشورى]

الآية	رقمها	الصفحة
لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَےْءٞۖ وَهُوَ...	9	95
۞مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ اَ۬لَاخِرَةِ...	18	88

[سورة الدخان]

الآية	رقمها	الصفحة
رَبُّ اُ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ...	6	28

[سورة الجاثية]

الآية	رقمها	الصفحة
ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَيٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ...	17-18	135

[سورة محمد]

الآية	رقمها	الصفحة
وَالذِينَ اَهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدي...	18	81

[سورة الرحمان]

الآية	رقمها	الصفحة
وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ...	45	69

[سورة الحديد]

الآية	رقمها	الصفحة
لِّكَيْلَا تَاسَوْاْ عَلَيٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا...	22	57
وَرَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا...	26	93

[سورة المجادلة]

الآية	رقمها	الصفحة
لَّا تَجِدُ قَوْما يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ...	21	141

[سورة الطلاق]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَي اَللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ... ۖ	3	63

[سورة التحريم]

الآية	رقمها	الصفحة
۞يَأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَي اَللَّهِ تَوْبَة...	8	61

[سورة الملك]

الآية	رقمها	الصفحة
يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً...	2	121

[سورة نوح]

الآية	رقمها	الصفحة
قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ...	21	28

[سورة الجن]

الآية	رقمها	الصفحة
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦ...	26-27	132

[سورة المزمل]

الآية	رقمها	الصفحة
وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلِ اِلَيْهِ...	7	48

[سورة الإنسان]

الآية	رقمها	الصفحة
وَاذْكُرِ اِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً...	25	48

[سورة الأعلى]

الآية	رقمها	الصفحة
بَلْ تُوثِرُونَ اَلْحَيَوٰةَ...	16-17	55

[سورة البينة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ...	5	44-106

[سورة التكاثر]

الآية	رقمها	الصفحة
ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ	8	19

فهرس الأحاديث النبوية

[أ]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
إن أل أبي قال عمرو ...	البخاري	139
ازهد في الدنيا يحبك الله...	ابن ماجة	55-136
أمرت أن أقاتل الناس...	البخاري	26
إن الله قال من عادى لي...	البخاري	139
ألا أخبرك بملاك	الترمذي	40
أول ما بدئ به رسول الله من الوحي...	البخاري	109

[ث]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
ثالث من كن فيه وجد...	البخاري	66

[ع]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
عليكم بالصدق...	مالك	43

[ك]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
كن ورعا تكن أعبد الناس...	ابن ماجة	59

[ل]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
الله أشد فرحا بتوبة...	البخاري	61
لله تسعة وتسعون اسما...	البخاري	36
اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت...	البخاري	28
اللهم رب جبريل وميكائيل...	مسلم	28

[م]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
مثل الجليس الصالح والجليس السوء...	البخاري	136
مثل الذي يذكر ربه...	البخاري	50
من قال لا إله إلا الله وحده...	البخاري	50

[و]

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
وما اجتمع قوم في بيت من بيوت...	مسلم	50

فهرس المصادر

-القرآن الكريم برواية الإمام ورش.

[أ]

1- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بالمرتضى ط دار العلمية 1989 بيروت.

2- إحياء علوم الدين للغزالي تقديم بدوي طبانة دار إحياء الكتب العربية.

3-إحياء علوم الدين لغز الي ط جديدة دار الكتب العلمية بيروت.

4-إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة لأحمد المقرى، ط:1 دار الفكر دمشق.

5-إيقاط الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني ط: 3 مكتبة ومطبعة مصطفى الباجي وأولاده 1982 دمشق.

[ت]

6- تزكية النفوس كما يقرها علماء السلف جمعها أحمد فريد، تحقيق ماجد بن أبي الليل ط:1 دار القلم بيروت.

7-التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يحي التادلي المعروف ابن الزيات تحقيق أحمد التوفيق، ط: 2 منشورات كلية الآداب بالرباط سنة: 1997.

8-التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي نشر وتصحيح آرثرجون أوبري مكتبة الخانجي 1933 مصر.

9-تفسير ابن كثير دار النهضة العربية مؤسسة الكتب الثقافية ط: 3 سنة: 1996 بيروت.

10- تلبيس إبليس لابن الجوزي تصحيح ونشر دار الطباعة المنيرية بالقاهرة بمساعدة علماء الأزهر دار الكتب العلمية 1368 ه بيروت.

11- تلبيس إبليس لابن الجوزي تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، ط:1 المكتبة العصرية سنة: 2001 بيروت.

[ج]

12- جامع الترمذي. تحقيق أحمد شاكر وغيره دار الكتب العلمية بيروت.

[د]

13- دلائل التوحيد للشيخ جمال الدين القاسمي خرجه عبد الرحمان العك، ط: 1 دار النفائس 1991 بيروت.

[ذ]

14- الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني مطبعة الوطن سنة: 1299 هـ مصر.

[ر]

15- الرسالة القشيرية للقشيري مؤسسة الكتب الثقافية الط:1 سنة: 2000م بيروت.

16- رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي حققه عبد الفتاح أبو غدة ط: 3 دار السلام 1988 حلب سوريا.

[س]

17- سنن ابن ماجة تحقيق فؤاد عبد الباقي دار الفكر لبنان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[ش]

18- شرح الصلاة المشيشية للطيب عبد المجيد بن كيران تحقيق بسام محمد بارود، ط: 1 المجمع الثقافي 1999 أبو ظبي.

19- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي خرجها مجموعة من العلماء ط:7 المكتبة الإسلامية 1983 بيروت.

[ص]

20- صحيح البخاري طبعة دار الكتب العلمية 1999 بيروت.

21- صحيح مسلم دار إحياء التراث العربي لبنان ط:1 سنة:1991.

22- صفوة الصفوة لابن الجوزي تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان ط: 2 حيدر أباد الدكن سنة: 1968 الهند.

23- صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق ناجي الطنطاوي و علي الطنطاوي ط: 5 دار المنار سنة: 1991 جدة.

24- صيد الخاطر لابن الجوزي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط:1 المكتبة العصرية 2002 بيروت.

[ف]

25- فتاوي ابن تيمية، ط 2 مكتبة المعارف 1981 الرباط.

26- الفرق بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان لابن تيمية تصحيح وتعليق محمود عبد الوهاب فايده دار العلم للجميع القاهرة.

[ق]

27- قطر الولي على حديث الولي للشوكاني تحقيق إبراهيم هلال ط: 1 دار الكتب الحديثة 1979 القاهرة.

28- قوت القلوب في معاملة المحبوب للمكي مطبعة الباجي الحلبي سنة: 1961 مصر.

29- القوانين الفقهية لأحمد بن جزي الغرناطي تحقيق عبد الكريم الفيصلي طبعة دار الرشاد 1999 الدار البيضاء.

[ل]

30- لسان العرب لابن منظور تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، ط 3 دار إحياء التراث العربي 1999 بيروت.

31- لطائف المنن لابن عطاء الله الإسكندري، تحقيق خالد عبد الرحمان العك، ط دار البشائر سنة:1992 دمشق.

32- اللمع في التصوف للطوسي نسخ وتصحيح رنولد ألن نيكلسون مطبعة بريل 1914 ليدن هولندا.

[م]

33- معجم مقياس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس زكرياء، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط: 1 دار الإسلامية 1990 القاهرة.

34- مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة لأبي العباس بن العريف جمعه أبو بكر عتيق تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش، ط: 1 دار الغرب الإسلامي 1993 بيروت.

35- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الواحد الوافي، ط: 1 لجنة لبيان العربي، 1960 القاهرة.

36- مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ط:2 المكتبة العصرية 2000 بيروت.

37- الملل والنحل للشهرستاني تحقيق سيد محمد كيلاني، دار المعرفة 1982 بيروت.

38- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي قدم فريد جبر طبعة المكتبة الشرقية 1969 بيروت.

39- الموطأ للإمام مالك خرجه وعلق عليه نجيب ماجدي ط 1 المكتبة العصرية 2000 بيروت.

40- مدراج السالكين لابن القيم الجوزية، هذبه عبد المنعم صالح علي العزي، ط: 1 سنة:1991

المغرب.

[و]

41- الوصايا لمحي الدين بن العربي طبعة دار الجيل 1988 بيروت.

فهرس المراجع

[أ]

1- الأخلاق لعبد الله شبر، دققه جواد شبر دار المرتضى ودار الكتب الإسلامية بيروت.

2- أم القرى للكواكبي، ط: 1 مؤسسة ناصر الثقافية 1981 بيروت.

[ت]

3- تربيتنا الروحية لسعيد حوى ط: 4 دار السلام 1995 القاهرة.

4- تاريخ التصوف الإسلامي لعبد الرحمان بدوي ط:1 وكالة المطبوعات 1975 الكويت.

5- تاريخ التصوف الإسلامي القاسم غني ترجمه عن الفارسية صادق نشأت وأحمد ناجي ومحمد حلمي مكتبة النهضة المصرية 1972 القاهرة.

6- التصوف الإسلامي لأحمد عطا ط:1دار الجيل 1987 بيروت.

7- التصوف الثروة الروحية في الإسلام لأبي العلا عفيفي، ط: 1 دار المعارف سنة: 1963 القاهرة.

8- التصوف في الإسلام لعسر فروخ دار الكتب العربية 1981 بيروت.

9- التصوف منشؤه ومصطلحاته لأسعد السحمراني ط: 1 دار النفائس سنة: 1987 بيروت.

10- التصوف والمجتمع لعبد اللطيف الشاذلي، ط:1 مطابع سلا 1989 سلا.

11- ابن تيمية والصوفية لدرنيقة والمصري، ط مكتبة الإيمان المكتب الإسلامي 1992 مصر.

[ج]

12- جواهر البخاري وشرح القسطلاني لمصطفى محمد عمارة، ط:1 المكتبة التجارية الكبرى.

[ذ]

13- ذكر الله عز وجل للدكتور الحسيني أبو فرحة سلسلة كتب التصوف رقم 27.

[س]

14- السلفية للبوطي ط: 1 دار الفكر 1988 دمشق سوريا.

[ش]

15- شرح جوهرة التوحيد المسماة تحفة المريد الابراهيم محمد البيجوزي طبعة دار العلمية سنة: 1983 بيروت.

[ع]

16- العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي ط: 24 مؤسسة الرسالة 1993 بيروت.

17- العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية لأحمد بن حجر ال بوطامي ط:1 1970 بيروت.

18- عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري، طبعة دار الجيل 1981 بيروت.

19- على طريق العودة إلى الإسلام للبوطي طبعة مؤسسة الرسالة 1981 بيروت.

[ف]

20- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمان بن حسين آل الشيخ ط: 1 المكتبة السعودية 1984.

21- في التصوف الإسلامي وتاريخية نكلسون رينولد الن نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1969 القاهرة.

22- في الفلسفة الإسلامية لإبراهيم مدكور دار المعارف 1983 مصر.

[ق]

23- القاموس المحيط للفيروز أبادي، ط: 2 مؤسسة الرسالة 1987 بيروت.

[ك]

24- كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ط: 8 دار الفكر 1998 بيروت.

25- كشف القناع المسدول في حكم السماء المقبول لمحمد الخطيب ط:1 1973 بيروت.

[م]

26- مجلة المعرفة عدد يونيو 1931.

27- مجلة منار الإسلام العدد 8 السنة 13 بتاريخ 19 مارس 1988. أبو طيبا.

28- محاضرات في الفلسفة الإسلامية الخليف فتح الله، ط:1مكتبة كريدية 1975 بيروت.

29- المدخل إلى التصوف للمنوفي دار القومية بدون تاريخ القاهرة.

30- المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى ط: 4 دار السلام 1988 القاهرة.

31- مصادر العلوم في الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوج، ط 1 دار الهجرة 1996 الرياض.

32- معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحنفي ط 1 دار المسيرة 1980 بيروت.

33- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لفؤاد عبد الباقي، ط ا دار الحديث 1996 القاهرة.

34- من كنوز العلم النافع في المنهج الصوفي لإسماعيل صادق العدوي سلسلة كتب التصوف الإسلامي رقم 34.

35- منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري ط:1 دار الفكر 1992 بيروت.

[ن]

36- نظام الإسلام العقيدة والعبادة لمحمد مبارك، ط: 2 دار الفكر 1981 دمشق.

37- نظام العبادة في العقيدة والتشريع لمصطفى ديب بغا، ط 1 دار الفكر 1997 دمشق.

[هـ]

38- هذه هي الصوفية لعبد الرحمان الوكيل. ط 4 دار الكتب العلمية 1984 بيروت.

39- هذا والدي للبوطي ط: 2 دار الفكر 1998 دمشق.

محتويات

تقديم.. 5
الفصل الأول: حياة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي 8
المبحث الأول: نشأة البوطي وتعليمه 8
المطلب الأول: نشأته 8
المطلب الثاني: تعليمه 8
المبحث الثاني: شيوخ البوطي ونشاطاته ومؤلفاته 9
المطلب الأول: شيوخه 9
المطلب الثاني: نشاطاته 9
المطلب الثالث: مؤلفاته 9
الفصل الثاني: كتاب "هذا والدي"... 13
المبحث الأول: منهجية كتاب "هذا والدي" 13
المطلب الأول: ترجمة حياة والد البوطي رحمه الله 13
المطلب الثاني: مفهوم العبادة عند الملا رمضان رحمه الله 15
الفرع الأول: صلواته وتهجده 15
الفرع الثاني: تلاوته وحفظه للقرآن الكريم 15
الفرع الثالث: أذكاره وأوراده 16
الفرع الرابع: أدعيته ومناجاته 16
الفرع الخامس: ورعه وزهده 17
المطلب الثالث: مسلك الملا رمضان في تربية أولاده 18
المطلب الرابع: أخذ الأهل والأولاد بهذه التربية.. 18
المطلب الخامس: الأثر الذي تركته هذه التربية 19
المطلب السادس: الموالد وموقف الملا رمضان رحمه الله منها 20
المبحث الثاني: تأثر البوطي بمنهج وسلوك والده رحمه الله 20
المطلب الأول: التأثر بعبادة والده.. 20
المطلب الثاني: التأثر بعلم والده رحمه الله 21
الفصل الثالث: فكر البوطي من خلال كتابه "هذا والدي" 23
المبحث الأول: مفهوم التوحيد عند البوطي 23
المطلب الأول: التوحيد لغة... 23
المطلب الثاني: التوحيد اصطلاحا... 25
المطلب الثالث: أقسام التوحيد... 27

الفرع الأول: توحيد الربوبية 27
الفرع الثاني: توحيد الألوهية 29
الفرع الثالث: توحيد الله تعالى في صفاته 31
الفرع الرابع: توحيد الله في أسمائه 35
المبحث الثاني: المقامات والفضائل في فكر البوطي 36
المطلب الأول: الفضائل 37
الفرع الأول: العبادة وإصلاح النفس وتزكيتها 37
الفرع الثاني: الصدق وفضيلته.. 39
الفرع الثالث: الإخلاص 43
الفرع الرابع: الورد.. 46
الفرع الخامس: الذكر 48
الفرع السادس: الزهد والورع 55
المطلب الثاني: المقامات 60
الفرع الأول: التوبة 60
الفرع الثاني: التوكل.. 63
الفرع الثالث: المحبة 65
الفرع الرابع: الخوف 69
الفرع الخامس: الرجاء 72
الفرع السادس: الصبر ومجاهدة النفس ومحاسبتها 76
الفصل الرابع: الصوفية في فكر البوطي.. 82
المبحث الأول: مفهوم الصوفية 82
المطلب الأول: لغة 82
المطلب الثاني: اصطلاحا.. 84
المبحث الثاني: تاريخ التصوف وعلاقته بالفقه ومنطلقاته.. 87
المطلب الأول: نشأته ومصادره.. 87
المطلب الثاني: علاقة التصوف بالفقه.. 96
المطلب الثالث: منطلقات أهل الصفة التصوف 98
الفرع الأول: من حياة النبي ﷺ وسيرته 99
الفرع الثاني: من حياة الصحابة رضي الله عنهم 101
المبحث الثالث: الصوفية السنية والصوفية الباطلة الطرقية وموقف البوطي ووالده 105
المطلب الأول: الفصل بين الصوفية السنية النقية والصوفية الطرقية الباطلة.. 105
الفرع الأول: الصوفية السنية النقية 105

الفرع الثاني: الصوفية الطرقية الباطلة 112
المطلب الثاني: موقف البوطي ووالده رحمه الله من التصوف والبدع 116
الفرع الأول: علاقة التصوف بالطرق من تقدير البوطي ووالده 116
الفرع الثاني: موقفهما من الرابطة وأصلها 117
الفرع الثالث: مواقفهما من التثني في الذكر 118
الفرع الرابع: موقفهما من الشطحات 118
الفرع الثالث: مواقفهما من التثني في الذكر 119
الفرع الرابع: موقفهما من الشطحات 120
المبحث الرابع: الفكر الصوفي والكرامات بين الإثبات والتلبيس 124
المطلب الأول: الفكر الصوفي 124
الفرع الأول: السماع الصوفي 124
الفرع الثاني: الكشف عند الصوفية 131
الفرع الثالث: الخلوة والعزلة عند الصوفية 134
المطلب الثاني: أولياء الله في الفكر الصوفي..138
الفرع الأول: أولياء الله في القرآن والسنة..139
الفرع الثاني: الفرق بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان 141
الفرع الثالث: خَاتَم الأولياء..142
الفرع الرابع: أصناف الصوفية..143
المطلب الثالث: الكرامات بين الاثبات والتلبيس 144
الفرع الأول: الكرامة في اللغة والاصطلاح 144
الفرع الثاني: الفرق بين الكرامة والمعجزة..145
الفرع الثالث: جواز الكرامات للأولياء 147
الفرع الرابع: الكرامة عند أهل السنة والجماعة..149
خاتمة 155
فهرس الآيات القرآنية 157
فهرس الأحاديث النبوية 169
فهرس المصادر 171
فهرس المراجع..176

هذا الكتاب

وللبوطي رحمه الله لمسات خاصة من بين متصوفة عصره يعرف ذلك من كان له حظ وافر من الاطلاع على مؤلفاته والاستماع إلى محاضراته ودروسه التي ضمنها جملة من التصورات والوقفات الفكرية والسلوكية التي يتبناها ويقدمها للمتلقي في قالب سلس سهل الفهم والدراية مستساغ العبارة والمعنى.

وقد أحسن الأستاذ الباحث إذ أجلى جوانب مهمة من الشخصية الفكرية والعلمية للدكتور البوطي رحمه الله وكشف ما من شأنه أن يساعد على الإلمام بالمعين الذي استقى منه توجهه الصوفي السلوكي وأذكى في نفسه السير على طريق من سلفه من الصالحين أهل العرفان واقتفاء أثرهم والنهل مما نهلوا مصحوبا بقاعدة التصحيح وتجاوز ما وقع فيه بعض القوم ظانين أنهم محسنون والحال أنهم انحرفوا عن جادة صواب الهدي القرآني والسنّي.

فجزى الله تعالى خيرا الأستاذ الدكتور عبد اللطيف على هذه الدراسة وكتبها في ميزان حسناته..... ورحم الله العالم الجليل الدكتور البوطي وأعلى مقامه في الصالحين والمقربين والله تعالى من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.